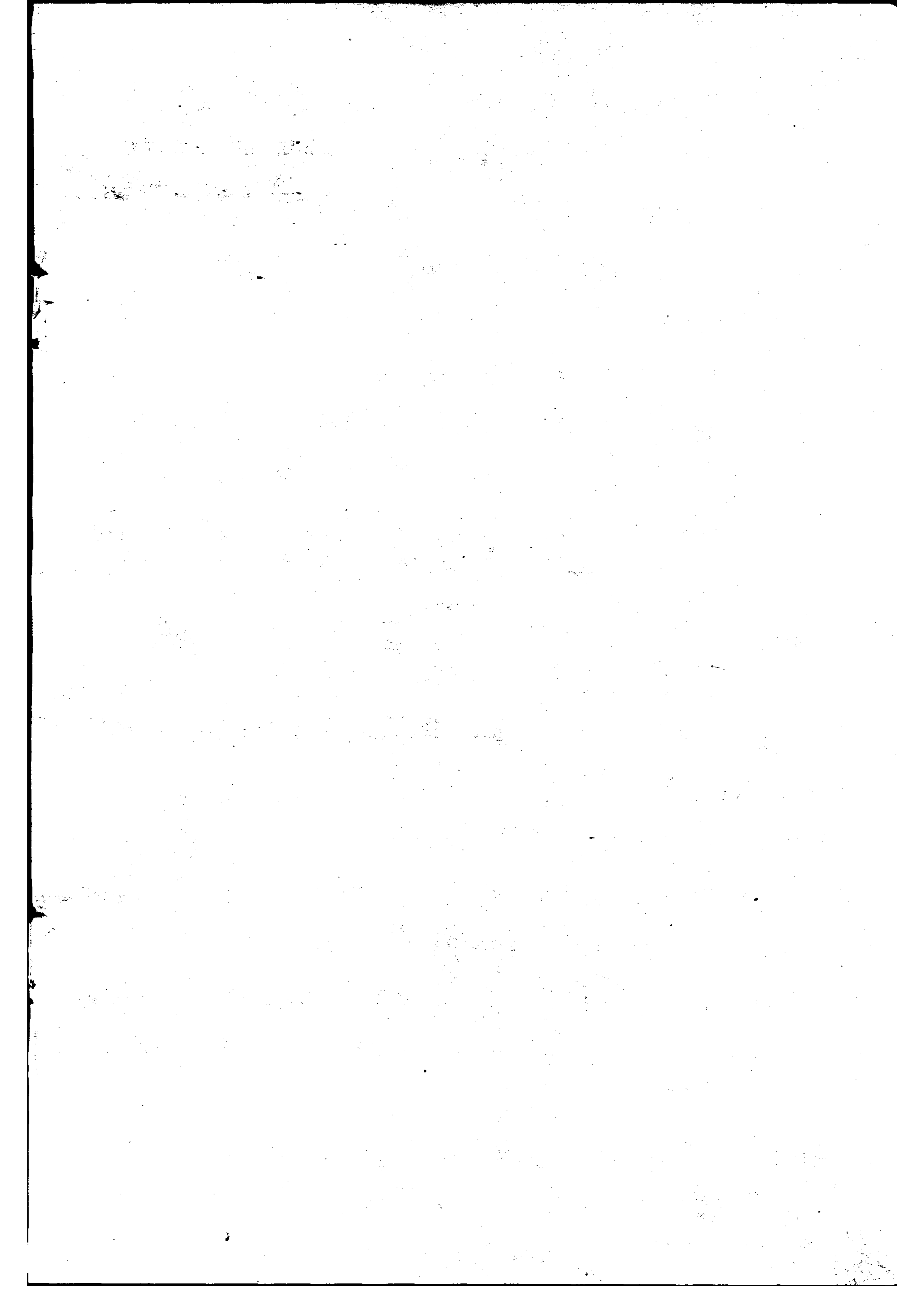
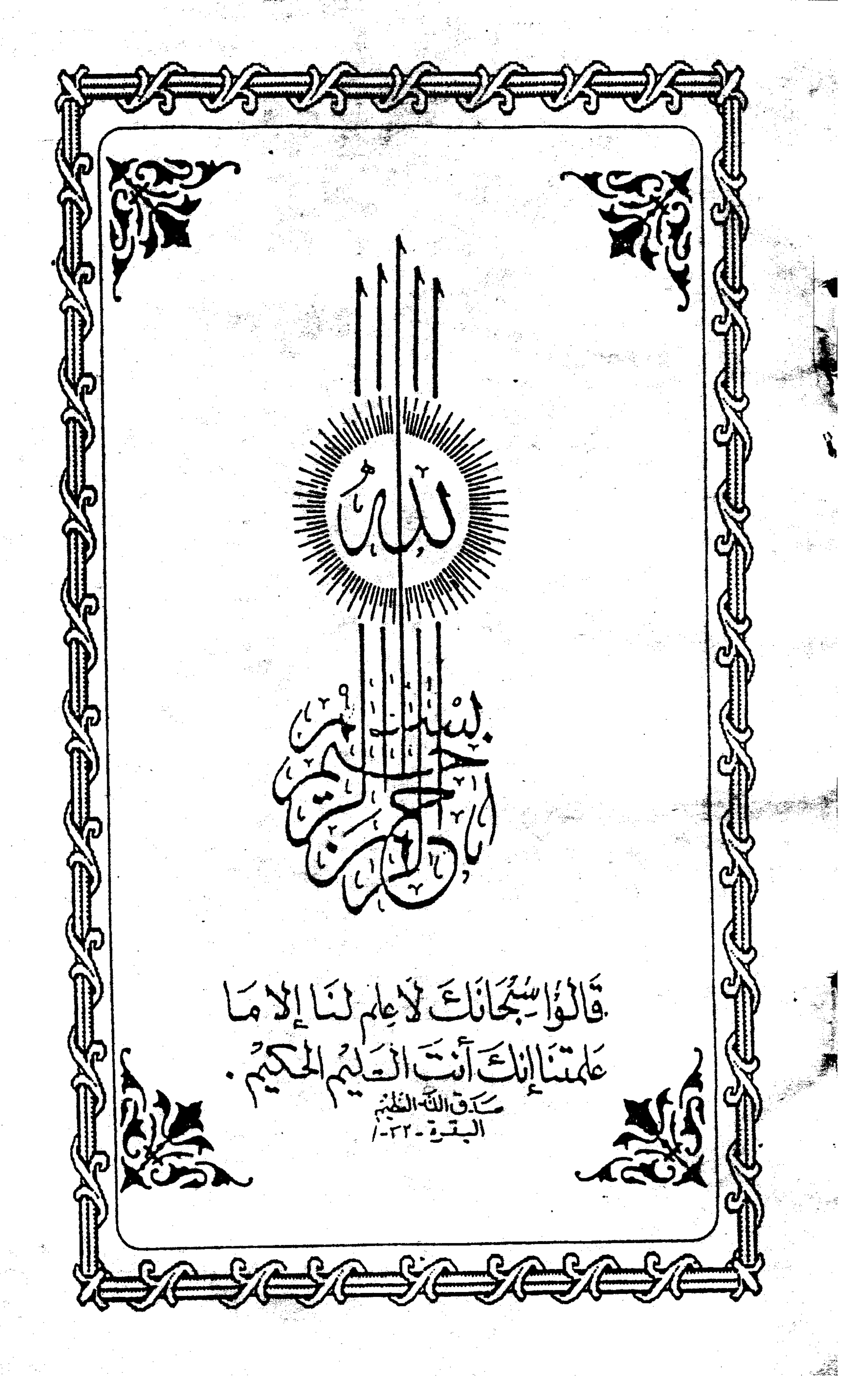
أ.د/ أحمد عبد القادر الشاذلي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

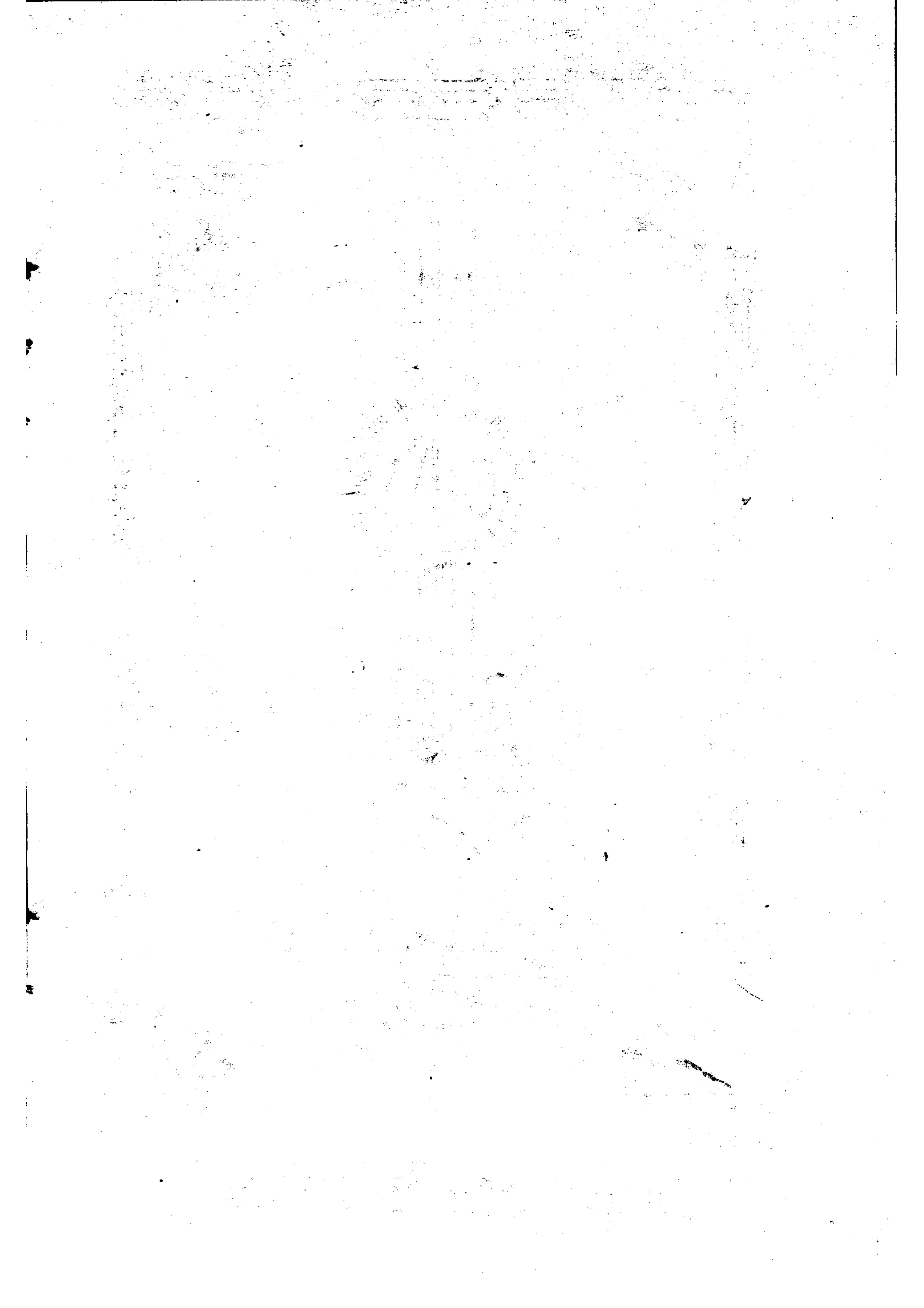
فتوحات هولاكوخان

في

ميزان النقد التاريخي




الله
بسم الله الرحمن الرحيم
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما
علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .
صدق الله العظيم
البقرة - ٣٢ -



هولاكوخان

المغول والتتار

يُطلق اسم المغول كاسم مرادف لاسم التتار ، على القبائل التي تقطُن جنوبي سيبيريا وعلى شاطئ نهر أنون وأعالي نهر آمور ، وبالقرب من بحيرة بيكال ، والمغول والتتار فرعان من أصل واحد .

والمُغول أو المَغال أو المُغل أو المنغول هم قبائل تركية كانت تقطن بجوار قبائل التتر أو التتار أو التاتار ، وهم قبائل تركية أيضا وقد حدث نزاع بين قبائل المغول والتتار مرات عديدة ، فكانت إحداهما تسيطر على الأخرى فترة من الزمن .

وقد ورد اسم التتار لأول مرة في نقوش أورخون التركية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (1) ، وكان التتار أكثر تحضرا من المغول ، ويسمى ابن الأثير في كامله أسلاف المغول بالتتر ، ولم يظهر اسم المغول إلا في القرن الرابع الهجري (2) .

ويذكر بعض المؤرخين أن المغول قبيلة من التتر (3) ، ويقال أن النجه خان أحد ملوك الترك قديمًا وُلد له ولدان توأمان (4) هما : تتارخان ومغل خان ، وصار من نسل كل منهما قبيلة ، وظل الشعبان في ونام حتى وقع نزاع بين ملك المغول وملك التتار ، واستعبد التتار المغول زمنًا طويلاً حتى عهد يسوكاى بهادروالد جنكيزخان الذي وحد بعض القبائل المغولية ، وقتله التتار بالسم ، وقام ابنه " تيموچين " الملقب بجنكيزخان بتوحيد قبائل

---

(1) Lane - poole - The Muhammadan Dynasties 228 .

(2) تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن القاهرة ١٩٨٢ ط الثانية ١٣٠/٤ .

(3) تاريخ التمدن الإسلامي - جرجى زيدان بيروت ٥٠٨/٣ .

(4) تاريخ الأمم الإسلامية - محمد الخضرى بك القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٦٧ .

المغول والتحالف مع إمبراطور الصين "كين" وأدخل التتار تحت سيطرته ثم أدخل قبائل الكرايت والنايمان والأويغور في طاعته [1] .

وقاد جنكيزخان جيوشه صوب المشرق الإسلامي بعد حادثته مع جلال الدين خوارزمشاه وقتل الأخير لجماعة من التجار في أترار .

هولاكوخان

هولاكوخان هو الابن الرابع لتولوى خان (الابن الرابع لجنكيزخان) وأمه هي سيورقوتى بيگى ابنة جاكمبو أخي أونگ ملك أقوام الكرايت ، وجاكمبو يعنى الملك المعظم الكبير [2] .

وهولاكوكما يدعوه العامة " هلاوون " من أعظم التتار ، وكان حازماً شجاعاً [3] .

أمه :

وأم هولاكو هي " سيورقوتى " ، كانت مسيحية نسطورية [4] على دين آبائها ، تدين بدين قبائل الكرايت ، وكانت في غاية الفطنة والدهاء .

زوجته :

وزوجة هولاكو المفضلة هي " دوقوز خاتون " وهى من الأصل العريق لقبائل الكرايت ، ومن المعروف أنه لم يكن له زوجة واحدة ، بل كان على غرار [illegible] التتار [illegible] العديد من الزوجات والمحظيات ، ولكن

---

[1] تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي – فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد – نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم الكويت ١٩٨١ /١/٤٠٠ .

[2] جامع التواريخ – رشيد الدين فضل الله – تاريخ المغول – نشره كاترمير ص ٨٦ – الترجمة العربية لصادق نشأت وآخرين ٢١٩/٢ .

[3] كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ لأبي العباس أحمد بن يوسف الدمشقى القرمانى – مخطوط سنة ١٢٨٢ هـ عن نسخة مصورة ص ٢٨٦ .

[4] إمبراطورية على صهوات الجياد – سليم واكيم – سوريا ص ١٠٧ .

زوجته دوقوز خاتون إبنة ايقوين أونكخان ملك الكرايت [1] كانت زوجة لأبيه وانتقلت إليه على عادة التتار [2] لذا فقد كانت مفضلة عنده على نسائه الأخريات :

وكانت دوقوز خاتون مسيحية أيضا ، وكانت تعمل على مؤازرة من هم على دينها[3] ، وقد قوى نفوذ المسيحين في عهدها ، كما أنها ساعدت كل من لجأ إلى البلاط من المسيحيين الأرمن وغيرهم طلبا لحمايتهم في أرمينية والشام ، كما كان لها أكبر الأثر في إثناء التتار عن غزو بلادهم .

وتأثر هولاكو بأمه النسطورية [4] ، واستغل ملك أرمينية هذه العاطفة ، واتجه إلى البلاط طالبا المساعدة للنيل من أعدائه في آلموت وبغداد .

أخلاق هولاكو :

إن أعمال هولاكو تدل على أخلاقه ، فقد كان سفاكا للدم محبا للتدمير، شغوفا لسماع آهات المتأوهين والمكلومين ، كان هولاكو يقتل لمجرد القتل ، ويهدم لمجرد الهدم، كان يفعل ذلك وهو يقهقه [5] .

وكان هولاكو دائم الاشتغال باللهو والطرب والاستمتاع [6] ، والدليل على ذلك قول رشيد الدين مؤرخ المغول من أنه قضى ما يقرب من أربعين يوماً وهو منصرف إلى الشراب في سمرقند [7] .

---

[1] جامع التواريخ النسخة الفارسية ٩٢ - الترجمة العربية ٢/٢٢٠ .

[2] كان من عادة المغول إذا مات أحدهم أصبحت زوجاته ميراثاً لابنه الأكبر ، له الحق التزوج منهن ممن يشاء باستثناء أمه ويطرد من يشاء أو يزوجهن لآخرين (هامش كاترمير - جامع التواريخ ٩٢).

[3] جامع التواريخ ٩٤ .

[4] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١١ .

[5] المصدر نفسه ٢٥ .

[6] جامع التواريخ ١٥٤ .

[7] المصدر نفسه .

ومع كل هذا التدمير والخراب الذى جلبه ، فقد كان - على حد قول عباس اقبال [1] - واحد من ملوك المغول الذين يحبون العمران ، فقد بنى في نواحي مراغة وبجوار أورمية ونهر جغلتو وجبل آلاغ أبنية كثيرة ، ويوافق هذا رأى د. الصياد الذي يقول : يخطئ من يظن أن المغول كانوا مجرد شعب همجي مغير [2]. وهذا القول سنناقشه عند حديثنا عن همجية المغول وتحضرهم .

كان هولاكو لا يقدم على شئ إلا بعد استشارة المنجمين ورجال الفلك - الذين كانوا بمعسكره دائمًا - وقد دعاه هذا الاهتمام بالفلك والتنجيم ، الاهتمام ببناء مرصد مراغه ، والاهتمام بشئون نصير الدين الطوسي - القائم على هذا المرصد ، أما أنه كان لا يتأثر بشئ إلا برجال العلماء - على حد القول سليم واكيم [3] ودليله على ذلك حُسْن استقباله لشيخ الجبل خورشاه ، فهذا قول مرفوض ، لأنه أراد من خورشاه المساعدة في الاستيلاء على باقي قلاع الإسماعيلية ، وكما حدث أيضا مع خليفة بغداد ، وقد قتلهما بعد أن أصبحا غير ذي نفع .

أولاده :

كان لهولاكو أربعة عشرة ولدا وسبع بنات [4]، منهم ابنه آباقا خان ، الذي صار خانا أعظم من بعده .

ديانته :

كان هولاكو خان على ديانة قومه ، فقد كان شامانيا ، وهى عبادة الخان الأعظم ابن الإله المعبود ، وهذه العبادة للخان هي سبب تماسك هؤلاء

---

(1) تاريخ المغول طهران .

(2) المغول في التاريخ بيروت ١٩٨٠ /١٤/١ .

(3) إمبراطورية على صهوات الجياد ١٣٠ .

(4) جامع التواريخ ٩٨ .

القوم، واتحادهم حول ملكهم باعتباره مقدساً ، ونلاحظ هـذا فـي رسـالة أرسلها منكوخان إلى ملك فرنسا جاء فيها " تلك هي وصية السماء الأزلية ، ليس في السماء سوى إله واحد ، وسيد واحد على الأرض هو جنكيز خـان ابن الله ، وباسم السماء الخالدة وخانـه الممثـل علـى الأرض ، أصـدر منكوخان الخاقان إلى ملك فرنسا أمراً باعتبار نفسه حاكماً تابعاً له [1] .

وهولاكو خان غير معروف له ديانة ، فالبعض ظنه مسيحياً على دين أمه وزوجته المسيحيتين ، وظنه بعضهم بوذيا ، ولهذا أقام المعابد البوذية [2].

ونخلص من هذا أنه لم يكن يؤمن بدين إلا دين آبائه ، على الرغم مـن كون أمه وزوجته مسيحيتان ، ولو آمن بالمسيحية حقا ما فعل هذا في ديار المسلمين ، كما أنه لو آمن بالبوذية أيضا ما فعل ذلـك لأن هـذه الديانـة الوضعية تدعو للسمو الروحي ، وما رأينا على مر التـاريخ عمـلا بوذيـا مشيناً كالذي فعله هولاكو .

---

[1] سليم واكيم ١١٠ .

[2] عباس إقبال – تاريخ المغول .

حملة هولاكوخان على قلاع الإسماعيلية
(٦٥١ - ٦٥٤ هـ)

الإسماعيلية :

أُطلق على الإسماعيلية هذا الاسم نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (الإمام السادس للشيعة المتوفى ١٤٨هـ) والإسماعيلية فرقة من الشيعة الغلاة ، ظهرت هذه الفرقة في أواخر القرن الثاني من الهجرة النبوية ، وكونت دولة لها في مطلع القرن الرابع الهجري ، سُميت باسم الدولة الفاطمية ، ثم انقسمت هذه الفرقة على نفسها عدة مرات فظهرت فرقة الدروز الحاكمية ، ثم ظهرت فرقة النزارية والمستعلية والنزارية هي نفسها الصباحية والفداوية والحشاشون [1] .

قلاع الإسماعيلية :

الإسماعيلية الذين نحن بصددهم هم إسماعيلية إيران والذين استقروا في المناطق الجبلية الوعرة ، والقلاع الحصينة في جبال البرز وأشهر قلاع الإسماعيلية كانت في أصفهان وقومس وقهستان ، وقد بلغ عدد هذه القلاع ما يزيد عن مائة وخمسين قلعة .

وأهم تلك القلاع هي : آلموت وكردكوه ولا مستر وميمون دزّ وطبس وجوروجوسف وزوزن وقاين [2] .

الفداوية :

لقد أقام الحسن الصباح مؤسس هذه الفرقة نظاما عسكريا صارما في القلاع التى استولى عليها بالقوة أحيانا ، وبالخديعة أحيانا وقد حمى هذا

---

[1] انظر كتابي حركات الغلو والتطرف في الإسلام القاهرة ١٩٨٧ وكتاب روضة الصفا لميرخواند ترجمة المؤلف .

[2] نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد النويرى تحقيق فوزي العنتيل القاهرة ١٩٨٥ - ٢٦ /٢٥٤ .

النظام العسكري مجموعة من الفدائيين - الذين كانوا يفعلون ما يؤمـــرون دون مناقشة ، وكان الحسن الصباح يأمر أحدهم بقتل نفسه أو إلقاء نفســه من عل ، يفعل في الحال ، وكان الهدف من تكوين هــذه المجموعــة مــن الفداوية ؛ القضاء على كل من يقف في مواجهة " شيخ الجبل " أو "سـيدنا " وهو لقب إمامهم .

أسلاف الحسن الصباح :

وجاء بعد الحسن الصباح مجموعة من شيوخ الجبل وهم : كيا بزركـــ أميد وابنه محمد وحسن بن محمد المعروف بعلي ذكره السلام ومحمد بــن حسن وجلال الدين حسن بن محمد (نومسلمان م ٦١٨) وعــلاء الديــن محمد بن جلال الدين حسن (م ٦٥٣ هـ) وكان يهادن المغول وأخيرا ركـن الدين خورشاه المقتول ٦٥٥ هـ [1] .

ولما كنت قد تناولت أحوال الإسماعيلية ومعتقداتهم بالتفصيل في كتابيّ " حركات الغلو والتطرف في الإسلام " و" الشيعة الفاطميون يحكمون مصـر " كما ترجمت أحوالهم في كتاب " روضة الصفا في سيرة الأنبيــاء والملـوك والخلفا " لمير خواند ، فانني أكتفي بهذا القدر من الحديث عن الإسماعيلية.

دواعي الهجوم علي الإسماعيلية :

سعى هولاكو للقضاء علي الإسماعيلية ، وذلك لأسباب عديدة منها مــا يتعلق بقوة الإسماعيلية ومناعة حصونهم ومنــها مــا يتعلــق بتحريـض المسيحيين في أرمينية والمسلمين في قزوين ، ومنها ما يتعلــق بشـكوى بايجو نويان حاكم إيران ، ومنها ما يتعلق باستعداد هولاكو للقضــاء علـى الخلافة في بغداد ومن ثم لا يريد شوكة في ظهره .

---

[1] كتاب حركات الغلو والتطرف - الدار المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٧ وروضة الصفا في سـيرة الأنبيــاء والملوك والخلفاء - الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨ - الشيعة الفاطميون يحكمون مصر - الهيئة المصرية العامـة للكتاب ١٩٨٩ .

١- كان للإسماعيلية قلاع حصينة في قهستان ورودبار وآلموت واصفهان والوديان الجنوبية لجبال البرز [1] ، وكانت هذه القلاع تعج بالمقاتلين الأبطال وكان للإسماعيلية الغلبة في صراعهم مع السلاجقة والخوارزمشاهية ، كما كان الإسماعيلية أقوى قوة في المنطقة تهدد المسيحيين والمسلمين على السواء ، ولهذا أراد هولاكو القضاء على هذه القوة التي ستهدد قوته في إيران .

٢- عندما أرسل منكوخان بايجونويان للمحافظة على إيران ، أرسل الأخير إلى منكوخان رسولا يشكو إليه الملاحدة وخليفة بغداد [2] .

٣- رأى الإسماعيلية أن أطماع المغول لن تنتهي عند حد ، فصمموا على مقاومتهم ، وراسلوا ملوك إنجلترا وفرنسا سنة ٦٣٧ هـ ، وطلبوا منهم العون ، ولم يلقوا مجيبًا، وقد كان قول أسقف مدينة ونشستر معبراً عن رأى المسيحيين قال " دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضًا ، حتى يُقضى عليهم نهائيًا ، وعندئذ سوف نقيم على انقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية فنكون حقًا راعياً واحدًا وقطيعاً واحدًا " [3] .

٤- سعى المسيحيون للقضاء على الإسماعيلية والخلافة العباسية أكبر قوتين إسلاميتين في ذلك الوقت ، وقد استغلوا في ذلك العلاقة الدينية بينهم وبين قبائل الكرايت والنايمان والأويغور [4] ، وفيهم كثير من المسيحيين ، بل كانت أم وزوجة هولاكو من هذه القبائل .

فقد أرسل الملك لويس التاسع وليام روبروك إلى بلاط منكوقا آن ودعاه إلى المسيحية، ولكن منكوخان أرسل إلى ملك فرنسا فرمانًا باعتباره – أي

---

[1] عباس إقبال .

[2] جامع التواريخ ١٢٠ .

[3] كتاب السلوك للمقريزى م١ق٢/٣٨٣ .

[4] عباس إقبال .

باعتبار لويس التاسع نفسه – حاكما تابعا له [1]، وقد وصف روبروك ما شاهده في رحلته ،

وقام ملك أرمينية هيتوم (حاتم) سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٦٣ م [2] ، بزيارة لبلاط منكوقا آن ، وأخذ معه خميس الفصح ، ورحل عن مدينة سيس [3] وقوبل بحفاوة بالغة ، وعقد تحالفاً مع المغول للقضاء على الإسماعيلية في قلاعهم وخليفة بغداد وفتح مصر والشام[4].

وقد منح منكوقاآن الملك هتوم براءة حماية وتثبيت ملكي وبراءة تحرير الكنائس في كل مكان ، وقدم منكو الملك الارميني إلى هولاكو وقد حثه على فتح بغداد وغزو الشام ومصر [5] ، وقد وعده هولاكو بأنه سيدمر هذه البلاد شر تدمير .

ولم تكن رحلة روبروك وملك أرمينية إلا بهدف القضاء على قوة المسلمين الذين ينازعونهم السلطان في أرمينية والشام .

٥- كان أهالي قزوين يعانون من حالة الحرب القائمة بينهم وبين الإسماعيلية ، وذلك لأن أهالي قزوين كانوا من السنة وكان القزوينيون متعصبين لمذهبهم [6] ، ويذكر ابن طباطبا [7] قولا لواحد من أهالي قزوين من أنه كان يخفى في سراديب ماله من أثاث وقماش ورحل عندما يحل المساء خوفاً من كبسات الملاحدة ، فإذا أصبح أخرج الأمتعة ، وهكذا كل ليلة ، وكان أهالي قزوين كذلك يفعلون ، ويحملون السكاكين والسلاح

---

[1] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١٠ .

[2] تاريخ مختصر الدول لابن العبري الطبيب الملطي بيروت ١٩٨٣ ص ٤٦٠ .

[3] المصدر نفسه ٤٦٠ .

[4] عباس إقبال .

[5] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١١ – تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن ١٥٢/٤ .

[6] عباس إقبال .

[7] الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية بيروت ١٩٨٠ ض ٢٦ .

حتى ذهب شمس الدين قاضى قزوين إلى القاآن ، وأحضر المعسكر لتخريب قلاع الملاحدة .

وقد ذكر رشيد الدين فضل الله [1] ومنهاج السراج الجوزجانى [2] أن القاضي شمس الدين القزويني قد أثار منكوقاآن ضد الإسماعيلية وصدرت منه كلمات جافة وصفت الخان بالضعف والعجز ، لعدم قيامه باستئصال شأفة هؤلاء الملاحدة .

٦- إن هولاكو كان قد عين بفرمان منكوقاآن سلطانا وحاكماً على بلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى [3] ومصر ، وبالأحرى من جيحون (آمودريا) حتى أقاصي بلاد مصر [4] ، وصارت هذه القلاع من أملاكه وكان هولاكو يريد إقامة دولته العظمى التى لا ينافسها منافس ، وقد كان الحشاشون أو الإسماعيلية على حد قول الغربيين قوة الإسلام الضاربة [5] فكان لابد من القضاء على هذه القوة الضاربة أولاً .

٧- أراد هولاكو أن يقتلع الشوكة التى قد تطعنه من الخلف عندما يتوجه إلى بغداد [6] ، وعند قضائه على الإسماعيلية سيخلو ميدان الصراع ، فيستطيع فتح بغداد والشام ومصر .

---

[1] جامع التواريخ ١٢٠ .

[2] طبقات ناصري ٤١٣ - ٤١٤ .

[3] تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ١٥٤/٤ .

[4] المغول في التاريخ ٢٣٣/١ ، جامع التواريخ ١٢٨ .

[5] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٢٨ .

[6] المغول في التاريخ ٢٣٥/١ .

قلاع الإسماعيلية :

استولى الإسماعيلية على قلاع حصينة في قهستان ورودبـــار وآلمــوت والوديان الجنوبية لسلسلة جبال البرز [1] .

فقد استولى الحسن الصباح على قلعة الموت الحصينة بالحيلة والتدبير ، ثم أخذ في إرسال الدعاة إلى القلاع المجاورة حتى دانت له قلاع كردكوه ولا مستر [2] .

واستطاع الحسن الصباح مؤسس الإسماعيلية الاستيلاء على قلاع ديــره استوناوند وميمون دژ وشم كوه في جبال البرز ، وكردكوه فـــي الدامغــان وطبس وتون وترشيز وزوزن وخور في قهستان وشاه دژوخان لنجان فـــي اسفهان وكلان تنبور وعدة قلاع أخرى في المنطقة الجبلية بفارس وكـــلات ناظر في خوزستان [3] .

وكان المقر الرئيسى للإسماعيلية جبال الطالقان وورود بـــار وآلمــوت ، ويوجد في هذه النواحى خمسون قلعة حصينة ، وألموت هى عاصمتهم ودار ملكهم [4] .

وكان للإسماعيلية قلاع حصينة أخرى في ولاية قومس (سمنان ودامغان الحالية) وقهستان ، وكان عدد القلاع جميعها مائة وخمسون قلعة، وكـــان يحكم القلعة حاكم يسمى " محتشم " [5] ولم يكن لهؤلاء المحتشمين زوجـــات

---

[1] عباس إقبال ص .

[2] روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء جلد جهارم ٦٦ الترجمة العربية للمؤلف ٢٤٢ - ٢٤٣ .

[3] المصدر السابق ٦٧/٤ .

[4] عباس إقبال .

[5] المحتشم : درجة لحاكم القلعة التابعة لشيخ الجبل (تاريخ فاتح العالم جهانگشاى لعطا ملك جوينى ترجمـــة د. محمد التونجى ٢٤٩/٢ .

لأنهم كانوا طوال الوقت في دفاع وفرار، ولم يكونوا مرتبطين بشيء أو بأحد قط [1] .

وذكر النويرى أن قلاعهم في آلموت وطبس وقهستان وجور وجوسف وزوزن وقاين وتون وكردكوه [2] .

وبالإضافة إلى هذه القلاع التى استولى عليها الإسماعيلية عنوة أو بالخديعة من أهلها، أقام كَيا بزرك أميد قلاعًا حصينة أخرى وجدد القلاع القديمة التى كانوا قد استولوا عليها في عهد الحسن الصباح [3].

ولم تكن قلاع الإسماعيلية في إيران فحسب ، بل كان لهم قلاع أخرى في الشام ، ولهذا فعندما استسلم خورشاه آخر شيوخ الجبل لهولاكو أنعم عليه هولاكو بمرسوم (يرليغ) ولوحة ذهبية (بايزه) ووهبه فتاة مغولية ليتزوجها ، وكان كل هذا من أجل مساعدته في فتح القلاع التى كانت في الشام ، وقد أرسل خورشاه رجلين أو ثلاثة من خاصته مع هولاكو إلى قلاع الإسماعيلية بالشام لدعوة الناس هناك للتسليم حين تصل الرايات إليهم [4] .

وقد دمر هولاكو الكثير من قلاع الإسماعيلية الحصينة ، وهدم أبراجها وأسوارها العالية ، وعلى الرغم من ذلك ظلت بعض القلاع القليلة التى نجت من التدمير أو التى جدد الإسماعيلية عمارتها مصدر قلق للمغول والمنطقة فترة من الزمن .

---

(1) عباس إقبال ص .

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٥٤/٢٦ .

(3) روضة الصفا ٦٧/٤ الترجمة العربية ٢٤٩ .

(4) جامع التواريخ ٢١٨ الترجمة العربية ٢٥٧/٢ .

خط سير حملة هولاكو على الإسماعيلية :

اجتمع " القوريلتاى " المجلس الوطني المغولي ، واختار منكو خاناً أعظم وقسم منكوقاآن مملكته على أخوته ، وأعطى لهولاكو خان البلاد الواقعة من شاطئ آمودريا إلى أطراف مصر[1] .

وخلال هذه الفترة حدثت بعض الأحداث منها ؛ أن الإسماعيلية كانوا قد دخلوا في طاعة المغول في عهد جنكيزخان ، ولكنهم عادوا بعد ذلك وانحرفوا عن طريق الطاعة [2]، كما أن لويس التاسع ملك فرنسا كان قد أرسل وليم روبروك لتحريض القاآن ضد الإسماعيلية والخلافة العباسية في بغداد ، كما توجه ملك أرمينية هيثوم أيضاً للغرض نفسه [3]، وتداعت الأحداث بتولي هولاكو هذه النواحي ، ومن ثم وجب عليه تأمينها وحمايتها فصدر له أمر من القاآن بالتوجه بجيش جرار بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل صوب إيران [4] .

امضى هولاكو خمسة أعوام في إعداد هذه الحملة الضخمة فطلب من الختا خبراء في المنجنيق وقذف النيران النفطية ، فوصل إليه من الختا ألف مجموعة ختائية متخصصة بالمنجنيقات ، وبإمكانهم أن يفتحوا منافذ بحجم الجبل لدى قذفهم الحجارة - على حد قول ملك جويني [5] .

---

(1) جامع التواريخ ١٢٨ الترجمة العربية ٢٣٤/٢ ، إمبراطورية على صهوات الجياد ١٢٦ .

(2) عباس إقبال .

(3) تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ١٥٣/٤ ، إمبراطورية على صهوات الجياد ١١١ .

(4) عباس إقبال .

(5) تاريخ فاتح العالم جهانگشاى ترجمة التونجى ٢٣٩/٢ .

ويقول رشيد الدين فضل الله [1] : أنه أحضر ألف أسرة من الخطا المدربين على استعمال أدوات القتال من المجانيق وزرافات النفط ورماة السهام .

وأرسل هولاكو في الطليعة الرسل ليهيئوا ممر الجيوش طولاً وعرضاً ويعدوا الأعلاف والمروج اللازمة لرعي الدواب ، فحفظوا الجبال والسهول[2]، وقام الرسل أيضا باختبار الطريق وأقاموا الجسور وحافظوا على المراسي [3] .

وقد أرسل هولاكو على رأس طليعته كيتوبوقا (كتبغا) - أحد أمراء المسيحيين - مع إثنى عشر ألف جندي [4] ، وكان كيتوبوقا من أقرب القادة إلى هولاكو ، وهو من قبيلة النايمان ، وقد أرسله ليمهد له الطريق ، فمكث ثلاث سنوات قبل قدوم هولاكو .

صدر أمر منكوقاآن لهولاكو بقيادة الحملة إلى إيران سنة ٦٥١ هـ [5] ، وأوصى منكوقآن هولاكو - الذى لم يكن قد تجاوز السادسة والثلاثين [6] - بوصية جاء فيها " حافظ على تقاليد جنكيزخان ، وقوانينه الكلية والجزئية ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون إلى أقاصي بلاد مصر بلطفك وإنعامك ، أما من يعصيك فاغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به ، وابدأ بإقليم قهستان فخرب القلاع والحصون ، فإذا فرغت من هذه المهمة فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها ، وإذا

---

[1] جامع التواريخ ١٣٢ الترجمة العربية ٢٣٥/٢ .

[2] تاريخ فاتح العالم جهانگشاى ٢٣٩/٢ .

[3] جامع التواريخ ١٣٤ الترجمة العربية ٢٣٥/٢ .

[4] عباس إقبال .

[5] تركستان لبارتولد ٦٩٠ - الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين ٢٦ .

[6] عباس إقبال .

بادر خليفة بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقا ، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين من الهالكين ، وكذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد [1].

وصل هولاكو إلى نواحي سمرقند في بلاد ما وراء النهر [2]، فاستقبله الأمير مسعود بيك [3] ، وانتقل هولاكو إلى " كش " فوصل إليه الأمير أرغون حاكم إيران الشرقية وملك شمس الدين كرت ملك هرات وفيروزكوه وكرجستان ، وقدما فروض الطاعة والولاء [4].

عبر هولاكو نهر آمودريا [5] " جيحون " أواخر سنة ٦٥٣ هـ ووصل خراسان من طريق بلخ وخاف ، وقدم الأمير ارغون عماله وكتابه إلى هولاكو ليكونوا في خدمته ، وكان من الكتاب عطا ملك جويني [6] .

في الوقت الذى توجه فيه هولاكو إلى إيران ، كان كيتوبوقا قد خرب بعض قلاع الإسماعيلية في دامغان ، وحاصر قلعة كردكوه أودز كنبدان ، واقتحمها جماعة من جنود المغول ، وأسرع بنفسه صوب رودبار وطارم للاستيلاء عليهما ،ولكنه لم يوفق في فتح كردكوه ورودبار وانتظر مقدم هولاكو .

وعندما وصل هولاكو إلى طوس ، أرسل شمس الدين كرت رسالة إلى محتشم قهستان ، وهو ناصر الدين - وكان شيخا كبيرا - كتب نصير الدين

---

(1) جامع التواريخ ١٤٢ الترجمة العربية ٢٣٧/٣ .

(2) تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي بارتولد ٦٩٠ .

(3) عباس إقبال .

(4) جامع التواريخ ١٤٨ الترجمة العربية ٢٣٩/٣ .

(5) إمبراطورية على صهوات الجياد ١٢٧ .

(6) جامع التواريخ ١٥٠ الترجمة ٢٤٠/٢ - عباس إقبال .

كتابه أخلاق ناصري على اسمه – وطلب شمس الدين منه تقديم فروض الولاء ، ففعل [1] .

كان خورشاه في ذلك الوقت يحاول كسب الوقت ، وعندما أرسل إليه هولاكو رسله ، خرب خمس قلاع خالية التحصين ، وخرب بوابات بعضها الآخر محافظاً على رؤوسها وقممها [2] ، وأخذ في المماطلة في الذهاب إلى هولاكو وإعلان الطاعة .

الاستيلاء على قلاع الإسماعيلية :

كان كيتوبوقا قد سبق هولاكو – كما ذكرت من قبل – واستولى على بعض هذه القلاع التي في قهستان ورودبار[3] وحاصر بعضها الآخر .

وقد أرسل خورشاه إلى ميسيور نوين حاكم همدان رسالة ولاء ، وقد أبلغه ميسيور أن هولاكو على وشك القدوم وعليه اللجوء إلى بلاطه [4] .

وعندما وصل هولاكو إلى إيران صمم الاستيلاء على قلاعهم ، وخاصة قلعة آلموت – المقر الرئيسي لهم – وأرسل رسولا من يستطام إلى خورشاه يدعوه للتسليم والولاء [5] ، فأرسل خورشاه إلى هولاكو أخاه شروانشاه (شيرانشاه – شهنشاه) ، وذلك طبقا لمشورة خواجه نصير الدين الطوسي[6] .

وأكرم هولاكو وفادة رسل خورشاه ، وطلب منه أن يحضر بنفسه إليه ويخرب قلاعه، فقام خورشاه بتخريب بعض القلاع الخالية ، وخرب بوابات

---

[1] عباس إقبال .

[2] تاريخ فاتح العالم جها نكشاى ٢٤٨/٢ .

[3] جامع التواريخ ١٦٨ الترجمة ٢٤٣/٢ .

[4] روضة الصفا لمرخوند الترجمة العربية ٢٥٧ .

[5] جامع التواريخ ١٨٢ الترجمة ٢٤٩/٢ – روضة الصفا الترجمة ٢٥٧ .

[6] عباس إقبال

بعضها محافظاً على قممها ، وطلب خورشاه من هولاكو أن يمهله سنة أخرى [1] ، وأرسل خورشاه ابنا له كان طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمره ، يقال أنه كان قد انجبه من محظية [2] ، وقال : أنه ولدى، وأرسل معه جمعًا من الأكابر والمعتبرين التابعين له ، لكن هولاكو أدرك أن الصبي ليس ولده وأعاده إليه [3] .

أدرك هولاكو أن خورشاه يسلك طريق الخداع والنفاق - والواقع أن خورشاه كان يخشى مهابة هولاكو وسطوته - على حد قول ميرخواند [4] ، وربما كان يريد الاستعداد لمواجهته ، وهذا احتمال قائم لحصانة قلاعه وشجاعة رجاله .

توجه هولاكو عن طريق بسطام ، وتوجه كيتوبوقا من طريق سمنان وتوجه آخرون من الجيش المغولي عن طريق مازندران ، وأستولى هولاكو على لارودماوند ، واقترب من ميمون دز ، واستولى آخرون من الجيش على ولاية رودبار ، وفي أواخر رمضان سنة ٦٥٤ هـ استولى هولاكو على المعابر الحصينة بين رودبار وطالقان وحاصر ميمون دز [5] .

ولما كان الاستيلاء على هذه القلعة ليس سهلا ، فقد أرسل إلى خورشاه ودعاه لطاعته ، فأرسل خورشاه أخاه شروانشاه وخواجه نصير الدين الطوسي وثلاثمائة من رجاله ، وقيل أنه أرسل إبنا من أبنائه معهم [6] ، فأرسل هولاكو الثلاثمائة رجل إلى جمال آباد وقتلهم [7]، وأعاد أخاه إليه ،

---

[1] روضة الصفا الترجمة العربية ٢٥٧ - جامع التواريخ ٢٠٢ الترجمة ٢/ ٢٥١ .

[2] تاريخ فتح العالم جهانكشاى الترجمة ٢/ ٢٥٠ - جامع التواريخ ٢٠٤ .

[3] جامع التواريخ ٢٠٤ الترجمة ٢/٢٥٢ - روضة الصفا ٢٥٨ .

[4] روضة الصفا لمرخواند ٢٥٧ .

[5] روضة الصفا ٢٥٨ - عباس اقبال .

[6] تاريخ فاتح العالم ٢/٢٥١ - روضة الصفا ٢٥٩ .

[7] جامع التواريخ ٢٠٤ - ٢١٤ الترجمة ٢/٢٥٢-٢٥٦ .

طالباً منه النزول خلال خمسة أيام ، فاعتذر لأن الفداوية يمنعوه من النزول، وأنه سوف ينزل بعد يوم أو يومين ، حين ينتهز الفرصة ويتحايل عليهم ونزل من القلعة أول ذي القعدة سنة ٦٥٤ هـ [١] .

لم يكن نزول خورشاه وإعلانه الولاء نهاية لمشاكل الإسماعيلية ، فقد استمرت قلعة آلموت وكردكوه وقلاع الشام ولبنان في يد الإسماعيلية ، إلا أنه بعد نزول خورشاه ، عامله هولاكو معاملة حسنة ، مما ساعد على تخريب قلعة ميمون دز وقرابة مائة قلعة أخرى للإسماعيلية في نواحي رودبار وقهستان ، ولم يقاوم سوى ثلاثة قلاع هي كركوه ولنبه سر وآلموت ، وقد سلمت قلعة كردكوه بعد عشرين يوماً ، وصمدت لنبه سر لمدة عام كامل ولم تستسلم إلا بعد انتشار الوباء بين سكانها ، ولم يستطع الحراس المقاومة فقبلوا الولاء وفتحوا القلعة [٢] .

وبقيت قلعة آلموت الحصينة ، ورفض حاكمها " كوتوال " الطاعة [٣] ، فاتجه هولاكو وحاصرها فترة ، ثم تركها في حصار الجيش ، واتجه إلى لامستر ، التي سلمت في الحال، واضطر كوتوال آلموت وأهلها التسليم في آخر الأمر [٤] .

-٢- قلعة آلموت، أشد قلاع الإسماعيلية حصانة ومتانة ، ومصدر حصانتها هي أنها قد بُنيت على قمة جبل أشبه برقبة جمل [٥] ، وكانت من شدة حصانتها أن الفرسان كانوا يضربون أسوارها فكأنها بروج مشيدة وكان بها ذخائر معدة منذ عهد الحسن الصباح لا تزال بحالتها ، ولم تصب

---

[١] روضة الصفا ٢٥٩ - تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٦٣ - عباس إقبال .

[٢] تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٦٤ - عباس إقبال .

[٣] روضة الصفا ٢٥٩ - جامع التواريخ ٢١٤ الترجمة ٢/٢٥٦ .

[٤] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ٢/٢٦٥ - عباس إقبال .

[٥] روضة الصفا ٢٥٩ .

يتلف [1] ، وكان بها أحواض محفورة في الصخور من العسل والشراب ، فلما فتحها الجنود غرقوا في خمرها وعسلها .

واستولى على أدوات الحرب والمنجنيق ، ونهب جنوده الأموال والخزائن، واستولوا على مكتبة قيمة كان الاسماعيليون قد أسسوها خلال سنوات طويلة . وطبقت شهرتها الآفاق ، واصدر هولاكو أمرا بإتلاف المكتبة [2] ، واستأذن عطا ملك جوينى - لمطالعة بعض الكتب ، حتى يفصل الكتب النفيسة والمفيدة ، ويحرق ما يتعلق بأصول وفروع المذهب الإسماعيلي ، ولهذا الهدف النبيل استخرج من مكتبة الإسماعيلية الكتب النفيسة والمصاحف وآلات النجوم والرصد ، و أتلف الباقي من جملتها كتاب مؤلف عن الإسماعيلية وأحوال الحسن الصباح وخلفائه باسم " سركذشت سيدنا " والذي حفظه عطا ملك من التلف [3] ، وضمن خلاصته في المجلد الثالث من جهانكشاى ، وأيضا يوجد فصل منه في جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله .

بعد أن نزل خورشاه وأعلن الولاء - وذلك لمشورة خواجه نصير الدين الطوسى ، الذي قال له : إن علامات النجوم وأوضاع الفلك تخبر أن دولة الإسماعيلية قد وصلت إلى غايتها ، وأفلت شمس سلطتهم [4] .

أحسن هولاكو استقبال خورشاه [5] ، وأنعم عليه بمرسوم " يرليغ " ولوحة ذهبية " بايزه " ، وخلع عليه ، ووهبه فتاة مغولية ليتزوجها [6] .

---

[1] فتحنامه " قلعة آلموت لعطاملك جوينى ملحق بكتابه جهانكشاى الترجمة العربية ٢/٢٠٤ .

[2] عباس إقبال .

[3] عباس إقبال .

[4] روضة الصفا ٢٥٩ .

[5] تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٦٤ - المغول في التاريخ ٢٤٤/١ .

[6] جامع التواريخ ٢١٦ الترجمة ٢٥٧/٢ .

لقد كانت المعاملة الحسنة من هولاكو لخورشاه ، مرجعه أن هناك عـــدة قلاع لم تستسلم استسلامًا كاملاً مثل كردكوه ، وهناك قلاع لم تفتح قط وهى قلاع الشام [1] ، ولهذا أراد هولاكو أن يستفيد منـــه لفتـــح هـــذه القـــلاع ، وتسخير بعض القلاع التى يتمرد أهلها عليه.

ويرى سليم واكيم [2] أن شيخ الإسماعيلية كان مديد القامـــــة ، يفـــرض مهابته على محدثه ، وقد تأثر هولاكـــو بشـــخصيته ، وكـــان المغـــول لا يتأثرون إلا بالرجال العظماء ، وتلك نقطة الضعف الوحيدة فيهم علـــى حـــد قوله .

ويقول ميرخواند [3] إن خورشاه أثناء وجوده بمعسكر هولاكو " تعلقت به إحدى بنات المغول فقدم لها المملكة مهرًا ، وعلم هولاكو بذلك ، فـــأمر أن يزوجوه إياها ، ورفعه إلى درجة أمير [4] .

طلب خورشاه بعد ذلك من هولاكو أن يرسله إلى منكوقاآن فأرسله إلـــى قراقورم في غرة ربيع الأول ٦٥٥ هـــ ، فلما وصلها رفض منكو استقباله وأرسل رسالة إليه تقول " طالما تدعى طاعتنا ، لما لا تسلمنا بعض القـــلاع مثل كردكوه ؟ وعليك أن تعود وتخربها وبعدها تعال إلى العتبـــة الظـــاهرة لتسعد بشرف ولائنا [5] .

واختلفت الروايات حول مصير خورشاه ، فبعضها يقول أنه عندما وصل خبر قدومه إلى القاآن قال : لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثًا على الدابـــة

---

[1] روضة الصفا ٢٥٩ – المغول في التاريخ ٢٤٤/١ – جامع التواريخ ٢١٨ .

[2] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٣٠ .

[3] روضة الصفا ٢٦٠ .

[4] عباس إقبال .

[5] روضة الصفا ٢٦٠ – تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٦٥ .

التى يركبها " ثم أرسل رسولا من قبله قضى على حياة خورشاه ، وهذه أوثق الروايات على حد قول رشيد الدين[1] .

والرواية الثانية حول مقتله أنه حاول الفرار ، وهو في الطريق إلى الخاقان ، لكن جنديا مغوليا أطلق عليه نبله فأصابت منه مقتلاً ، فخر صريعًا على الأرض [2] .

ويرى ميرخواند [3] أنه عندما بلغ شاطيء جيحون عند العودة وبسبب ماكان يواجه رسله من جوع ، انزلوه وغمدوا فيه السيف وقتلوه .

هذه هي روايات قتل خورشاه التى تؤكد أنه قتل بإيعاز من منكوقاآن الذي رفض استقباله ، وأمر بقتله وقتل أولاده وأخواته وأخوته وأهله ، وقد قتل خورشاه سنة ٦٥٥ هـ [4] .

أصدر هولاكو أمر بالقضاء على جميع خدم وحشم وأولاد وأخوة وأهل خورشاه ، وأرسل أحد ثقاته إلى قزوين لقتل أولاد وبنات وأخوة وأخوات وأهل وقوم وعشيرة خورشاه [5] ، ولم يبق حتى الأطفال الذين في المهد من أثر [6] ، وأرسل قائد جيش خراسان ، وكان مسئولا عن قهستان لقتل الإسماعيلية ، فقتل أثني عشر ألفا[7] .

---

[1] جامع التواريخ ٢١٨ الترجمة ٢/٢٥٨ - تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٦٥ .

[2] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٣٠ .

[3] روضة الصفا ٢٦٠ .

[4] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ٢/٣٥١ - عباس إقبال .

[5] عباس إقبال .

[6] جامع التواريخ ٢١٨ الترجمة ٢/٢٥٨ .

[7] روضة الصفا ٢٦١ .

علاقة المغول بالمسيحين :

أراد البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) بذل الجهد لإنقاذ العالم المسيحي على حد زعمه - فاتصل بالمغول وأرسل سفارتين إحداهما سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م - إلى قراقورم وكان على رأسها الراهب الفرنسيسكانى " يوحنا بيان دل كاربينى " الذي غادر ليون في إبريل سنة ١٢٤٥ م ، وأمضى خمسة عشر شهرا في اجتياز سهول آسيا الوسطى ، ووصل قراقورم في أغسطس سنة ١٢٤٦ م [١]، وقد توافق وصوله مع انعقاد " القوريلتاى " المجلس الوطني الذي انتخب كيوك بن أوكتاى (٦٤٤ - ٦٤٦ هـ) خانا أعظم فاحسن كيوك استقبال الوفد البابوى نظرا لأن بلاطه كان يمتلأ بالرهبان المسيحيين، وألقى بزمام الدولة لوزيرين مسيحيين وشيد كنيسة في معسكره [٢] .

وطلب رسول البابا من كيوك اعتناق المسيحية ، فكتب ردًا بأنه على البابا أن يعترف بسيادته العليا ، وأن يأتي إليه مع أمراء الغرب لو قدموا فروض الطاعة ، وقد عرض الرسول البابوى على البابا ما حدث مع شرح مفصل لأحوال المغول .

وأرسل البابا أنوسنت الرابع سفارته الثانية بعد قليل من وصول السفارة الأولى ، وعين عليها الراهب الدومينيكانى " اسكين لومباردى " الذى توجه إلى تبريز ، والتقي بالقائد المغولي بايجو في مايو ١٢٤٧ م . ووجد اسكين لومباردى بايجو رجلًا عدوانيًا ، وعرض عليه عقد تحالف ضد الأيوبيين ، وأرسل بايجو رسولين برفقة المبعوث البابوي، وهما " أيبك " و"

---

[١] المظفر قطز ومعركة عين جالوت - بسام العسيلي دمشق ط٢ ١٩٨٠ ص ٦٨ - ٦٩ .

[٢] تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ٤/١٥٢ .

سركيس " إلى روما ، ومكث هذان الرسولان سنة في كنف البابا ، وعاد إلى بايجو في نوفمبر ١٢٤٨ م [١] .

وأثناء استعداد لويس التاسع لشن حملة صليبية علـــى مصـــر وصلـــه مبعوثان نسطوريان وهما " مرقص وداوود " من قبل أحد القادة المغول وأكد تعاطفهما مع المسيحيين ضد المسلمين ، فأرسل لويس التاسع بعثـــة مـــن رهبان دومينيكاليين برئاسة اندرولونج جيمو وأخيـــه – وكانـــا يتحدثـــان العربية – وقد حملت البعثة كنيسة متنقلة إلى الخان بمثابة هدية ، وعندمـــا وصلت البعثة في يناير ١٢٤٩ م كان كيوك قـــد مـــات ، وتولـــت أرملتـــه الوصاية على العرش ، فاستقبلت البعثة بحفاوة ، وبسبب المشـــاكل التـــي ظهرت لم تستطع أن تفعل شيئاً .

كان الاسماعيليون يرون أن مطامع المغول لن تنتهي ، فـــأرادوا اقامـــة حلف مع ملوك إنجلترا وفرنسا وطلبوا المعونة [٢] .

وفي ذلك الوقت أراد الصليبيون – لويس التاســـع – عقـــد حلـــف مـــع اسماعيلية الشام ، حتى يضمن حيادهم ، وتم تبادل الرسل بين الإسماعيلية في الشام والصليبيين . وزار إيف البريتوني مكتبة الإسماعيلية في مصيـــاف وعثر على مخطوطات هامة .

وحقق الإسماعيلية وعدهم ، ولم يحقق الصليبيون وعدهم ، وكانوا [illegible] يهدفون القضاء على الإسماعيلية ، وجاء ذلك في مقولة لأســـقف مدينـــة ونشستر والتي أوردها المقريزي وهي " دع الكلاب يأكل بعضهم بعضا حتى يقضي عليهم نهائيًا . وعندئـــذ ســـوف نقيـــم علـــى أنقاضهـــم الكنيســـة الكاثوليكية [٣] .

---

[١] المظفر قطز ومعركة عين جالوت ٦٩ – ٧٠ .

[٢] المقريزي – كتاب السلوك جـ ١ ق٢ ص ٣٨٣ .

[٣] المقريزي كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٢٨٣ .

لقد كانت المسيحية تنتشر بين قبائل الكرايت والنايمان والأويغور وكانت أم هولاكو وزوجته تعتنقان المسيحية ، وقد قوى شأن هؤلاء بسبب رعاية هولاكو لهم ، وقد بلغ الأمر درجة أن أقاموا الكنائس في جميع الممالك كما أقيمت كنيسة في معسكر " دوقوزخاتون " زوجة هولاكو [1] .

وفي سنة ١٢٥٣ م توجهت سفارة كان على رأسها وليم روبروك وبارثولوميو الكريمونى ، ووصلت البعثة قراقورم - مقر الخان الأعظم سنة ٦٥٤ م / ٦٥٢ هـ ، وقد كتب وليم روبروك مشاهداته [2] ، وحمل رسالة من منكو إلى لويس التاسع ملك فرنسا جاء فيها :

" تلك وصية السماء الأزلية ، ليس في السماء سوى إله واحد وسيد واحد على الأرض ، وهو جنكيز خان ابن الله ، وباسم السماء الخالدة وخانه وممثله على الأرض ، أصدر منكو الخاقان إلى ملك فرنسا أمرا باعتبار نفسه حاكما تابعاً له " [3] .

وعاد روبروك بعد أن أدرك أن المغول في طريقهم لمحاربة المسلمين ومقاتلة الإسماعيلية وخليفة بغداد ، فعاد إلى أرمينية والتقى بملكها المسيحي هيثوم الأول .

كانت بلاد الملك هيثوم (حاتم أو حاطوم) أقرب البلاد إلى المغول ، كما أنها تقع بجوار بلاد المسلمين ، ومن ثم كانت تتعرض لاعتداء المغول والمسلمين ، ولهذا سعى هيثوم الأول للحفاظ على مملكته ، فأعلن الولاء ، وأرسل كتابا إلى بايجو سنة ٦٤١ هـ ، وقد انسحب المغول من بلاده . وأرسل مرة أخرى أخاه سمباد " في سفارة إلى قراقورم سنة ٦٤٦ هـ ،

---

[1] جامع التواريخ ٩٤ الترجمة العربية ٢/٢٢٠ .

[2] تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ١٥٣/٤ .

[3] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١٠ .

وقد استقبله القاآن إستقبالا حسنا عندما علم بولاء هيثوم ، وبعد أن اطمأن الملك الأرمني توجه بنفسه سنة ٦٥٢ هـ إلى بلاط منكوقاآن ، وكان هدف هيثوم الحفاظ على بلاده وتحويل نظر المغول عن الممالك النصرانية ، والوقوف إلى جوارها ، والقضاء على الخلافة الإسلامية في بغداد وغزو مصر [١] .

وقد عقد تحالف بين الملك الأرمني والمغول على أن يتعهد المسيحيون بالتعاون مع المغول مقابل استرداد بيت القدس وسلامة بلادهم [٢] .

لقد منح منكوقاآن الملك الأرمني براءة حماية وتثبيت ملكي كما منحه براءة تحرير الكنائس في كل مكان ، وقد كان في نية هيثوم إرجاع الأرض المقدسة إلى المسيحيين باستغلال العاطفة الدينية واستدرار عطف الخاقان[٣]، وقد حقق ما أراد ،وانكشف الحلف الصليبي – المغولي بعد هزيمة المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

ويتضح من هذه العلاقات المغولية – المسيحية أنها كانت علاقات سياسية أكثر منها دينية ، ويتضح هذا من قول روبروك الذى وجد دوقوز خاتون زوجة هولاكو ، رجال الكنيسية – النساطرة – منغمسين في الرذائل وأن صلواتهم لم تزد عن فجور السكارى، وقد شهد أحد أيام الأحاد المنشه وهى تترنح عند عودتها من القداس [٤] . ولهذا فإن السفارات والبعثات التى أرسلت للبلاط المغولي لم يكن هدفها الدين المسيحي بقدر ما كان هدفها السعي للقضاء على الخلافة الإسلامية وكسر شوكة المسلمين بأي وسيلة حتى لو استدعى ذلك التحالف مع الشيطان .

---

[١] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١١ .

[٢] المظفر قطز ومعركة عين جالوت ٧٨ .

[٣] إمبراطورية على صهوات الجهاد ١١١ عباس إقبال .

[٤] تاريخ الحروب الصليبية ٣/٥١٠ .

الحملة على بغداد ٦٥٥ - ٦٥٦ هـ

الخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ)

تولى أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله الخلافة العباسية بعد أبيه المستنصر بالله سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، وهو الخليفة الثامن والثلاثون والأخير من بنى العباس ، وظل في الخلافة حتى قُتل على يد هولاكو في العشرين من المحرم سنة ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨ م [١] .

اتفق كثير من المؤرخين على أنه كان خيراً ، متديناً ، لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان ، سهل الأخلاق ، خفيف الوطأة [٢] ، وكان حليماً كريماً سليم الباطن قليل الرأي حسن الديانة ، مبغضا للبدعة [٣] ، وكان متمسكاً بالسنة كأبيه وجده [٤] .

وأضاف المؤرخون إلى هذه الصفات الحسنة أنه كان محبا للكتب ، وكان صاحب خط جميل [٥] ، وأنه قد حمل كتاب الله وأكرم العلماء [٦] .

ومع كل هذه الصفات الحسنة ، كان صاحب لهو وقصف ، شغف بلعب الطيور ، واستولت عليه النساء ، وكان ضعيف الرأى ، قليل العزم كثير الغفلة [٧] ، وكان مستضعف الرأى ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه ، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق

---

[١] انظر مآثر الأنافة في معالم الخلافة للقلقشندى ٨٩/٢ - والفخرى لابن الطقطقى ٣٣٣ - شذرات الذهب ٢٧٠/٥ - تاريخ الخلفاء ٤٦٤ .

[٢] الفخري ٣٣٣ .

[٣] شذرات الذهب ٢٧٠/٥ - أخبار الدول ١٨٠

[٤] تاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٦٤ .

[٥] عباس إقبال .

[٦] البداية والنهاية ٢٠٤/١٣ .

[٧] تاريخ مختصر الدول ٤٤٦ .

الأمور، وكان زمانه يقضى أكثره بسماع الأغاني والتفرج على المسامرة ، وفي بعض الأوقات كان يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة [1]، وكان ذا طمع انشغل بجمع المال ، وكان من جملة ما لديه حوض خمسة أذرع في مثلها ، تزن كل قطعة فيه ثلاثمائة مثقال [2] .

كان المستعصم مغرماً باللهو ، وكان عهده سجلاً متواصلاً من الفوضى والاضطرابات في الداخل والخارج ، نشبت في أيامه الفتن والخلافات بين الحنفية والحنابلة وبين السنة والشيعة ، وسرح الجنود [3] .

وبينما كان المغول على أبواب بغداد ، طلب المستعصم من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جماعة من ذوى الطرب [4]، ومما يؤكد شغفه باللهو والغناء والنساء ما ورد في البداية والنهاية [5] من أنه " بينما أحاط التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة " وتضحكه ، وكانت من جملة حظاياه وكانت مولدة تسمى عرفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة من ذلك ، وفزع فزعاً شديداً وكان على السهم مكتوب " إذا أراد الله إنقاذ قضائه وقدره ، أذهب من ذوى العقول عقولهم " .

وكان من عادة الخلفاء أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم وبذلك جرت سنتهم إلى آخر أيام المستنصر ، فلما ولي المستعصم الخلافة ، أطلق أولاده وأم

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ٣٢٣ .

(2) مآثر الانافة في معالم الخلافة ٨٩/٢ - تاريخ كزيدة ٥٨٠ .

(3) مختصر تاريخ العرب لسيد مورعلى ترجمة عفيف البعلبكى ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(4) الفخري في الآداب السلطانية ٣٤٠ .

(5) البداية والنهاية ٢٠٠/١٣ .

محبسهم [1] ، فاستغل ابنه الأكبر ضعف أبيه ، وارتكب الجرائم التى ساعدت على إسقاط بنى العباس [2] .

ويذكر السيوطى [3] أنه كان للمستنصر أخ يعرف بالخفاجى يزيد عليه في الشجاعة والشهامة ، كان يقول : إن ملكني الله لأعبرن بالجيوش نهر جيحون ، وانتزع البلاد من التتار ، واستأصلهم ، فلما توفى المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجى الأمر وخافوا منه ،وآثروا المستعصم للينه وانقياده ليكون لهم الأمر فأقاموه .

هذه هي شخصية المستعصم بالله ، وهى شخصية جمعت الكثير من المتناقضات ، فقد ألقى بشئون البلاد في يد جماعة من القواد والوزراء ، وكانوا جميعا يتنافسون على المناصب وتدبير الدسائس ، ولم يكن لهم هم إلا في تدبير المؤامرات ، في الوقت الذي كان فيه المغول على مشارف بغداد .

كان زمام الأمور في بغداد في يد جماعة لا تزيد عن أربعة وهم : الوزير مؤيد الدين بن العلقمى الشيعى المذهب ، وشرف الدين إقبال الشرابي التركماني ، وهو كبير قواد جيش التركمان ، ومجاهد الدين الدويدار الصغير، وعلاء الدين آتون برسى الدويدار الكبير [4] .

كانت عساكر الخليفة قرابة ستين ألف جندي ، القسم الأكبر منهم تحت إمرة سليمانشاه، وكانت أمور الخلافة في يد الدويدار الكبير والصغير وإقبال الشرابي وابن العلقمى الوزير ، ولم يكن هؤلاء جميعا يخلصون للخليفة ، وكان كل واحد منهم يفكر في القضاء على الآخر ، وكان مجاهد الدين أيبك

[1] الفخري ٣٣٣ .

[2] عباس إقبال .

[3] تاريخ الخلفاء ٤٦٤ .

[4] عباس إقبال .

الدويدار الصغير أكثر هؤلاء القوم ثقة عند الخليفة، لذا جمع حوله جمعاً وصمم على خلع الخليفة وإجلاس آخر من بني العباس محله، ونبه ابن العلقمي الخليفة ، لكن الخليفة بدلاً من دفع الدويدار الصغير ،نصحه وعفا عنه ، وحدث نزاع بين الدويدار الصغير وابن العلقمي ، وسعى كل منهما ضد الآخر[1] .

بالإضافة إلى ذلك كان الوضع بين السنة والشيعة يزداد سوءاً وزادت الفتنة حتى وصل الأمر إلى هجوم أبي بكر ابن الخليفة على مقر إقامة الشيعة بالكرخ ، وارتكاب جرائم قتل وسلب وهتك للأعراض .

دواعي هجوم المغول على بغداد

كان الوضع في بغداد سيئاً للغاية في الوقت الذي كانت فيه المؤامرات تدبر للقضاء على الخلافة العباسية ، وكانت هذه المؤامرات بعضها يدبر من الداخل والبعض الآخر يدبر من الخارج .

وتعددت الأسباب والدواعي التي من شأنها دفع المغول إلى بغداد ومن هذه الدواعي :

- البعثات المسيحية والمعاهدات الصليبية ، التي أوردناها من قبل والتي أوعزت للمغول بضرورة القضاء على الخلافة العباسية .
- موقف ابن العلقمي وزير المستعصم ، والذي اتفق كثير من المؤرخين حول دوره في دعوة المغول لمهاجمة بغداد وإسقاط الخلافة العباسية .
- موقف الخليفة المستعصم نفسه من المغول ، والذي اتسم بالسلبية .
- موقف المغول أنفسهم والذين كانت لديهم الرغبة في فتح هذه البلاد حتى نهاية حدود مصر .
- الموقف في بغداد والأحداث التي وقعت بين طوائف الشعب والقواد .

---

[1] عباس إقبال .

أولاً : موقف المسيحيين :

حاول المسيحيون في الشرق والغرب الاتصال بالمغول وعقد تحالفات معهم بقصد القضاء على القوى الإسلامية في المنطقة سواء قوة الإسماعيلية أو الخلافة الإسلامية ، حتى يمكنهم ذلك من التغلغل في منطقة الشام ، واستعادة بيت المقدس ، والحفاظ على ممالكهم في الشرق ، وقد توجهت البعثات منذ بداية ظهور المغول على الساحة وحتى قدومهم إلى المشرق الإسلامي ، فكان الهدف المسيحي الصليبي تحريض المغول ضد المسلمين ، في مقابل الاعتراف بسيادة المغول ، وفي الوقت نفسه قدم الصليبيون في الشام مساعدات كثيرة للجيش المغولي ، ويتضح هذا على وجه الخصوص خلال المعارك التي قامت في الشام ، وقد سبق أن أوردت هذه التحالفات من قبل في حديثي عن علاقة المغول بالمسيحيين •

ثانيا : موقف ابن العلقمي

كان ابن العلقمي شيعيًا ، وقد وقعت فتنة في بغداد بين السنة والشيعة ، وبأمر أبي بكر ابن الخليفة ، قام الدواتدار الصغير بالهجوم على الكرخ – محل إقامة الشيعة – وارتكب جرائم قتل ونهب وسلب وهتك لأعراض النساء ، وقد وصل هجومهم حتى على دور قرابات الوزير ابن العلقمي فعظم ذلك على الوزير ، فكتب إلى هولاكو سرا ، وأطمعه في بغداد [1] ، كما أن ابن العلقمي كان يريد قطع الخلافة العباسية ليقيم خلافة من آل علي[2] وفي قول آخر أنه طلب منهم أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك [3] •

ولما كانت شخصية ابن العلقمي وعلاقته بالمغول قد أحدثت جدلاً كبيراً بين المؤرخين، فمنهم من هو حامل عليه متهم إياه بالخيانة ، ومنهم من

---

[1] شذرات الذهب ٢٧٠/٥ – تاريخ ابن خلدون ١١٤٩/٥ – ابن كثير ٥١٢/١٣ •

[2] تاريخ الخلفاء ٤٦٦ •

[3] شذرات الذهب ٢٧٠/٥ •

هو مدافع عنه ، ولهذا سوف استعرض أحوال ابن العلقمي ومذهبه وعلاقته بالمغول والاختلافات القائمة حول مدى صحة هذه الادعاءات أو كذبها في عرض مستقل .

ثالثا : موقف الخليفة المستعصم بالله :

لم يكن الخليفة يدرك خطر المغول ، وكان كلما جاءه خبر عنهم اختلف قواده ووزيره حول أسلوب الرد على هولاكو ، وكان موقف الخليفة غير واضح في نقاط ثلاث وهي : -

- عندما طلب هولاكو المدد منه أثناء حروبه مع الإسماعيلية ، لم يرسل الخليفة مددا، وقال له قواده : إن هولاكو يبغي إخلاء بغداد حتى إذا جاء لمهاجمتنا لم يلق رادع[1] .
- لم ينظر الخليفة أبعد مما حوله وكان يقول كلما وصله خبر تقدم هولاكو : إن بغداد تكفيني ، ولا يستكثرونها لي ، إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ، ولا أيضا يهجمون عليّ وأنا بها ، وهي بيتي ودار مقامي [2] .
- وبدلا من أن يزيد الخليفة من عدد جيشه ، ويستعد لقتال المغول ، خفض إعداده ، وكان عسكره حين ولي الخلافة مائة ألف فقطعهم المستعصم ، فصار عسكر بغداد دون العشرين ألف فارس [3] ، وكان هذا بمشورة ابن العلقمي [4] .

إذن يتبلور موقف الخليفة في أنه كان ضعيفاً لا يدرك قوة المغول وقد وضح هذا في الرسائل المتبادلة بين الخليفة وهولاكو ، وكان يعتقد أنه

---

[1] ذيل تاريخ جهانكشاى لخواجه نصير الدين الطوسى وهو ملحق بكتاب جهانكشاى وأيضا بتاريخ ابن العبرى انظر الذيل ٢/٣٩٣ - ابن العبرى ٤٧١ .

[2] تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٤٤٦ - عباس إقبال .

[3] مآثر الأنافة في معالم للقلقشندى ٢/٩٢ .

[4] تاريخ الخلفاء ٤٤٦ - البداية والنهاية ١٣/٢٠١ .

خليفة للمسلمين ولا يجرؤ أحد على مهاجمته ، وكان قنوعا قناعة جعلته يرى أن بغداد كافية له ، ولهذا لم يستعد للدفاع عن دولته ، وفرق جيشه بمشورة ابن العلقمي ، وكان من دواعي توجه هولاكو إلى بغداد أيضا طلبه المدد من الخليفة ، وعدم استجابة الأخير له .

رابعا : موقف المغول :

إن المغول الذين اكتسحوا الشرق الإسلامي ، وأصبحوا على مشارف بغداد – حتى لو قدم لهم الخليفة المدد ، ما تركوه ، لأن أطماعهم كانت تتجه إلى فرض هيمنتهم على جميع بلدان العالم المعروف في ذلك الحين ، ويتضح هذا من رسالة خاقان المغول لملك فرنسا والذي اعتبره تابعا له ، ويتضح أيضا من خلال الرسائل الموجهة من هولاكو إلى الخليفة ، والتي كان يطالب فيها بالسلطة الزمنية التي تخلت عنها بغداد لأمير من أمراء آل بويه والسلاجقة ، والسلطة الروحية أيضا [1] .

لقد وزع منكوقاآن الأقطار والبلاد على أمراء المغول ، ومنح هولاكو إيران والعراقين والشام ومصر ، ومنحه نفوذا على البلاد الواقعة من جيحون اقاصى مصر [2] ، مع أن هذه البلاد لم تكن جميعها قد دخلت في حوزته ، ومن ثم فإن منكوقاآن اعتبر الاستيلاء على هذا البلاد مجرد تحصيل حاصل ، ووضعها ضمن أملاك هولاكو خان – الذي كان يحلم بإقامة إمبراطورية مترامية الأطراف في بلاد فارس ومنطقة غربي آسيا على حساب الإسلام والمسلمين [3] .

---

[1] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٣٣ – المظفر قطز ١٠٣ .

[2] إمبراطورية على صهوات الجياد ١١١ .

[3] الحق أن هولاكو ما كان في حاجة إلى تحريض وذلك لأنه طمع في أن يكون له إمبراطورية خاصة في الغرب (تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي : ٢٩).

خامسا : موقف بغداد :

كان زمام الأمر في بغداد في يد جماعة من القواد والوزراء - الذين كانوا يعادون بعضهم البعض - ويتنافسون في تدبير المؤمرات والدسائس وفكر الدواتدار الصغير في خلع الخليفة وتنصيب غيره من بنى العباس [1] ، وفكر ابن العلقمي في القضاء على بنى العباس كلية ونقل الخلافة إلى أحد العلويين ، ولهذا كاتب المغول .

بالإضافة إلى هذا كانت الخلافة العباسية تعاني من مشاكل عدة في الداخل وبين طوائف الشعب ، وكانت الخلافات المذهبية بين أهالي بغداد تزداد حدة ، وكان أبو بكر[2] الابن الأكبر للخليفة المستعصم متعصبا للسنة ، ولهذا استعان بالدواتدار الصغير ، وفتك بالشيعة وارتكب الفواحش [3] ، واعتدى على مشهد الإمام موسى بن جعفر [4] . وحدث خلاف أيضا بين الحنفية والحنابلة ،وبين الأهالي والطبقة الأرستقراطية [5] .

فتح بغداد ٦٥٦ هـ :

جاء المغول عدة مرات إلى نواحي بغداد في عهد المستعصم ولكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء عليها إلا في سنة ٦٥٦ هـ ، ففي سنة ٦٤٣ هـ جاءوا إلى بغداد وقاتلهم جيش الخليفة بقيادة شرف الدين إقبال الشرابي ،

---

[1] جامع التواريخ ٢٦٦ .

[2] قال ابن الطقطقى وهو شيعى - أنه سُمى أبو بكر لأنه نهب الكرخ - ٣٣٣ ، وهذا تلميح إلى أبي بكر الصديق الذي يتهمه الشيعة باتهامات شتى .

[3] مختصر تاريخ العرب ٢٤٤ .

[4] عباس إقبال (انظر الترجمة المرفقة) .

[5] تاريخ المغول (انظر الترجمة) .

ومساعدة الوزير ابن العلقمي – على حد قول عباس إقبال [1] ولما لم يجد المغول في أنفسهم طاقة للقتال فروا ليلا .

أرسل هولاكو رسولا إلى الخليفة – أثناء توقفه في همدان – في العاشر من رمضان سنة ٦٥٥ هـ ، وحمله رسالة مليئة بالوعد والوعيد والعتاب – على رأي آخر[2] – بسبب عدم أرساله العدد – الذي كان قد طلبه أثناء حصار الإسماعيلية [3] ، وأورد هولاكو في رسالته : لقد مضى ما مضى فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ، ويحضر لمقابلتنا ، وإذا لم يُرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمانشاه والدواتدار ، فإذا استجاب لأمرنا ، فلن يكون من واجبنا أن يكن له الحقد وسنبقى له على دولته وجيشه ... ثم قال : فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله [4] .

ورد الخليفة على رسالة هولاكو بجفاء ، وعامل أهالي بغداد رسله أسوأ معاملة ، وذلك تبعا لمشورة قواده – باستثناء ابن العلقمي الذي نصحه ببذل المال والنفائس[5]، ورد الخليفة على هولاكو بقوله " أيها الشاب الحدث المتمنى قصر العمر[6] ... ، وأرسل الرسالة مع شرف الدين عبد الله بن

---

[1] تاريخ المغول (انظر الترجمة المرفقة).

[2] تاريخ ابن العبري ٤٧١ .

[3] الفخري ٣٣٥ – العراق بين احتلالين للعزاوى ١٥٥ – جامع التواريخ ٢٣٠ – الترجمة العربية ٢/٢٦٧ – ذيل جهانكشاى ٢/٣٦٤ .

[4] جامع التواريخ ٢٣٠ الترجمة ٢/٢٦٨ .

[5] البداية والنهاية ١٣/٢٠٠ – المغول في التاريخ ١/٢٦٠ .

[6] جامع التواريخ ٢٣٤ الترجمة ٢/٢٧١ .

الجوز ، وغضب هولاكو من رد الخليفة ، ولما فطه أهالي بغداد من إساءة معاملة رسل هولاكو [1] .

كان موقف الخليفة من هولاكو قائم على رأى الدواتدار الصغير الذي أثناه عن إرسال الهدايا وقال للوزير " لا تخفن تهديد المغول ووعيدهم فإنهم رغم كونهم أرباب دولة وأصحاب شوكة إلا أنهم لا يملكون سوى السهوس في رؤوسهم والريح في أكفهم [2] .

صمم هولاكو على التوجه إلى بغداد ، ولهذا جمع المنجمين والفلكيين ، واستشارهم فقال له حسام الدين المنجم : إن التوجه إلى بغداد ليس مأمونا ولكن باقي الأمراء قالوا: إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة ، وأكد نصير الدين الطوسى أنه لا ضرر من التوجه إلى بغداد ومقاتلة الخليفة واورد قصة مقتل الأمين والمتوكل والمنتصر والمعتز[3] .

وأرسل هولاكو أمامه سونجاق نوين وبايجو وكيتوبوقا نوين وانكيا نوين ولما علم الخليفة بتقدم طلائع المغول ، أرسل الدواتدار الصغير بجيش من بغداد عسكر بين باعقوبا وباجسرى [4] ، وانهزم جيش الخليفة وهلك الدواتدار الصغير وأسر الأمراء الذين معه[5] .

ولكن قبل وصول الجيش المغولي ، أرسل هولاكو إنذارا أخيرا إلى الخليفة ودعاه للحضور إليه [6] ، ولكن الخليفة رد عليه برسالة شارحا فيها سوء العاقبة لمن أراد سوءاً لبنى العباس وسوء خاتمة يعقوب بن الليث

---

[1] عباس إقبال (انظر ترجمة تاريخ المغول).

[2] جامع التواريخ ٢٣٦ عباس إقبال .

[3] جامع التواريخ ٢٦٢ الترجمة ٢/٢٧٩-٢٨٠ .

[4] ذيل تاريخ جهانكشاى ٢/٣٦٥ .

[5] تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥٠ .

[6] ذيل جهانكشاى ٢/٣٦٦ .

الصفار وأخيه عمرو والسلطان محمد السلجوقي وبسمل عيني السلطان محمد خوارزمشاه ، وطلب منه العودة من منتصف الطريق ، حتى يتمكن الخليفة من قضاء وقته فارغ البال مستمتعا بسماع الأغاني ومطالعة الكتب ومخالطة النساء وأهل الهزل ، وقد زادت هذه الرسالة من غضب هولاكو[1] .

تحرك هولاكو صوب إيران ، فسلم أمراء الحدود الجبلية العراقية حكوماتهم ، وبذلوا المال ، ودخل الأكراد تحت إمرته ، وأمر هولاكو جرماغون وبايجو بالتقدم من بلاد الروم إلى الموصل واربل وحاصرا بغداد من الغرب ، وانتظرا حتى وصول جيش هولاكو من الشرق .

وتقدم جيش سونجاق نوين من كردستان الحالية ، وتقدم كيتوبوقا وقواد آخرون من لرستان وخوزستان ، وتوجه هولاكو بنفسه ومعه أرغون وخواجه نصير الدين الطوسي وسيف الدين بيكجي وعلاء الدين عطاملك جويني من طريق كرما نشاه وحلوان [2] ، وبذلك حاصر بغداد من جميع الجهات .

تقدم جيش المغول ، وقاوم جيش الخليفة مقاومة ضعيفة ، ولم يصمد طويلا في مواجهة جيوش المغول – التى جاءت من كل جانب – فقد خرجت الجيوش إلى باعقوبا بقيادة مجاهد الدين أيبك الدويدار ثم سرعان ما انسحب الجيش لمواجهة جيش سونجاق وبايجو – الذين عبرا دجلة ووصلا إلى القسم الغربي من بغداد – واشتبك الجيش المغولي بجيش الخليفة ، وقتل من جيش الخليفة أثنى عشر ألف جندي وفر الباقون .

نزل هولاكو على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، وحاصر الجيش المغولي بغداد من كل ناحية ، وأخذ المغول في دك المدينة بالحجارة وقذائف

---

[1] عباس إقبال (انظر ترجمة تاريخ المغول) .

[2] الفخري ٣٢٥ – المظفر قطز ومعركة عين جالوت ١٠٤ – ١٠٥ .

النار من كل جانب ، ولما لم يبق أحجار حول بغداد حملوا الأحجار من جبال حمرين وجلولاء ، واقتلعوا النخيل من جذوره واندفعوا بـــالعرادات داخـــل المدينة [1] .

أخذ المغول في حصار بغداد الثلاثاء ٢٢ من المحرم ٦٥٦ هـــ وامتـــد الحصار حتى آخر الشهر ، وخلال هذه الفـــترة كـــانوا يخربـــون المدينـــة بالتدريج ، وضاق الخناق على الخليفة وأهالي بغداد ، وأضطر الخليفة إلـــى إرسال بطريرك النصارى مكيخا - وقيل أرسل معه وزيره ابن العلقمـــى [2] - إلى هولاكو ورفض هولاكو مقابلة البطريرك النسطورى ثـــم عـــاد ، وقبـــل مقابلته - بسبب إمرأته النسطورية - وطلب البطريرك الصفح عن الخليفة ، فقال هولاكو : إكراما لك - أي للبطريرك - ولمن تمثل من شعب لا يطمـــع إلى ملك الأرض، ودينه دين سماوي قط ، ســـأوافق علـــى وقـــف القتـــال بشروط، وهى أن يخرج جيش الخليفة وقائده ونائبه ووزيره من المدينـــة ، فاسمح لهم بأن يسيروا إلى الشام " ، ووافق الخليفـــة ، وخـــرج الجيـــش الأعزل فأجهز عليهم هولاكو ، خلافا للعهد الذي قطعه للبطريرك [3] .

وقيل أن ابن العلقمى كان أول من برز لهولاكو ، وتوثق منـــه لنفســـه ، وعاد إلى الخليفة ، وقال له : إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته بابنك ، وحسن له الخروج ، فخرج [4] .

خرج الخليفة المستعصم بالله وأولاده الثلاثة ، وثلاثة آلاف من ســـادات وأئمة وقضاة وأكابر وأعيان بغداد من المدينة يوم الأحد الرابع من صفـــر

---

[1] عباس إقبال ، (انظر ترجمة تاريخ المغول) .

[2] البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

[3] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٣ .

[4] مآثر الإنافة ٩٢/٢ - أخبار الدول ١٨١ - تاريخ الخلفاء ٤٧١ تـــاريخ التمـــدن الإسلامي ٥١٢/٣ - شذرات الذهب ٢٧١/٥ .

سنة ٦٥٦ هـ [1] ، ووصل إلى هولاكو ، الذي أحسن معاملته في الظاهر ، وطلب منه أن يمنع من تبقى من الأهالي من استعمال الأسلحة ومحاربة المغول ، ولما فعل الخليفة ، وتوقف الأهالي عن الحرب ، جمعهم هولاكو بحجة الحصر خارج بغداد وقتلهم جميعا ، وأمر في الرابع من صفر أن يُخربوا بغداد ، ودخلها في التاسع من صفر وسلمه المستعصم بيده مفاتيح خزائنه [2] .

وسجن هولاكو الخليفة بصورة مؤقتة في خيمة من اللباد [3] ، وأعمد السيف في سادات وعلماء وفضلاء بغداد ، وكلما خرجت طائفة قتلها ، وأبقى على الخليفة حيا إلى أن دله على مواضع الأموال والدفائن [4] .

قتل الخليفة :

لقد عامل هولاكو الخليفة المستعصم معاملة حسنة في أول الأمر أشبه بتلك المعاملة التى عاملها لشيخ الجبل خورشاه ، وعندما استنفد غرض بقائه ، تغيرت المعاملة ، وأمر هولاكو بتجويع الخليفة إلى أن بلغ منه الجوع مبلغا عظيما ، فسأل الخليفة أن يطعموه شيئا ، فقدم له هولاكو طبقا فيه ذهب وطبقا فيه فضه وجوهر ، وقيل له : كل هذا فقال : هذا لا يؤكل ، فقال له هولاكو : إذا كنت تعلم أنه لا يؤكل لم ادخرته كنت صانعتنا به أو استخدمت به جيشا لقيتنا به ، ثم أمر فأخذ البردة منه والقضيب فوضعها في طبق نحاس فأحرقهما ، وذرا رمادهما في دجلة [5] .

---

[1] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ٢٦٩/٢ – تاريخ الخلفاء ٤٧٢ ، تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن ١٥٩/٤ .

[2] عباس إقبال (انظر الترجمة) تاريخ الإسلام ١٦٠/٤ .

[3] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٥ –أخبار الدول ١٨١ .

[4] بغداد – خلفاؤها – ولاتها – ملوكها – رؤساؤها – باقر امين الورد ٧٤ ، شذرات الذهب ٢٧١/٥ – العراق بين احتلالين ١٨٥/١ .

[5] أخبار الدول وآثار الأول ١٨١ – تاريخ وصاف ٤٩ .

ويذكر عطا جويني [1] أن هولاكو قال له عندما قال الذهب لايؤكل : فلم خبأته ولم تعطه لجنودك ؟ لم لم تصنع من هذه الأبواب حرابا ولم تأت إلى شاطيء جيحون لتمنعني من العبور ؟ فأجاب الخليفة : إنه أمر الله ، قال هولاكو : وما يجرى لك أمر من الله أيضا، وأحصى عدد نساء الخليفة وأولاده من القصر فكانوا سبعمائة امرأة وألف وثلاثمائة غلام[2] .

وقال ابن الطقطقى [3] : إن هولاكو قد أمر بخروج الخليفة وولده ونسائه إليه ، فخرجوا ، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو ، فيقال أنه عوتب ووبخ بما معناه نسبة العجز والتفريط والغفول إليه .

طريقة القتل :

كان من عادة المغول ألا يريقوا دما ملكيا [4] ، ومن هنا تفننوا في طرق قتل الأمراء والنبلاء الخارجين ، فمنهم من كان يوضع في تنور به زيت يغلي ، ومنهم من وضع في جلد ثور طرى ، ويخاط حول الضحية فإذا جف الجلد اشتد وضاق وقتل من فيه [5] ، أو أن هذا الجلد يُترك بذئبه وعندما يخرج منه الدود يبدأ في أكل لحم الضحية [6] .

وعندما أراد هولاكو قتل الخليفة ، استشار وزراءه ، وأفتاه نصير الدين الطوسى " بقتل الخليفة ولا يراق دمه [7] وهوّن قتل الخليفة [1] أمام

---

[1] تاريخ فاتح العالم ٣٦٩/٢ .

[2] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ٢٧٠/٢ .

[3] الفخري ٣٣٦ .

[4] السلوك لمعرفة دول الملوك ٤٠٩/١ – هارولد لامب – جنكيزخان وجحافل المغول ٦٥ – ٦٦ – إمبراطورية على صهوات الجياد .

[5] طريقة عرفها المسلمون واستخدمها ابن الحجاج مع محمد بن القاسم ، وورد ذكرها في رحلات ماركوبولو .

[6] طريقة قتل ابن الصلايا في اربل .

[7] طبقات الشافعية ١١٢٤/٥ .

هولاكو، بل أشار عليه كما أشار ابن العلقمى بعدم مصالحة الخليفة لأن هذا الصلح لن يدوم طويلا وحسنا لهولاكو قتل الخليفة [1] .

واختلفت الروايات حول قتل الخليفة ، فقيل أنهم قتلوه رفسا وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه ، وخافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم ، وقيل بل خُنق وقيل بل أغرق [2] .

وقال أبو الفدا [4] : لم يقع الاطلاع على كيفية قتله ، فقيل خنق وقيل وضُع في عدل ورفسوه حتى مات ، وقيل غرق في دجلة .

وقال ابن اياس [5] : أن هولاكو وضعه في تليس ولازال يرفسه بالنعال حتى مات وهو في التليس .

وقال السيوطى [6] وابن العماد الحنبلى [7] : وقُتل الخليفة رفسا ، وقال الذهبي : وما أظنه دفن ، ولكن ابن القوطى [8] يقول انه لم يهرق دمه بل جُعل في غرارة ورفس حتى مات ، ودفن وعفي أثر قبره ، ولكن ابن بطوطة يقول أنه رأى قبر المستعصم ، وهو آخر العباسيين وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم [9] .

---

[1] وهو أيضا رأى بدر الدين لؤلؤ (منهاج السراج ٤٣٠) .

[2] البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

[3] البداية والنهاية ٢٠١/١٣ - مآثر الأنافة ٩٢/٢ .

[4] المختصر في أخبار البشر ٢٠٣/٣ .

[5] بدائع الزهور ٣٠١/١ .

[6] تاريخ الخلفاء ٤٧٢ .

[7] شذرات الذهب ٢٧١/٥ .

[8] الحوادث الجامعة ٣٢٧ .

[9] تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة بيروت ١٥١ .

وقال ابن خلدون [1] : قبض على المستعصم فشدخ بالمعاول في عدل تجافيا عن سفك دمه بزعمهم .

وقال القرماني [2] : كما أمر وأخذ الخليفة وولده فوضعها في جولقين، وأمر برفعها، وقيل ضربا بالمرازب وبعداق الجص إلى أن ماتا .

ويقال أنه أمر بوضعهم على الطريق الذي يسلكه جيشه الجرار البالغ تعداده حوالي مائة وتسعة وعشرين ألف جندي ، فداستهم الخيل وهو يغادر بغداد عائدا إلى همدان - ولم يبق من جثث الخليفة وأبنائه شيء يذكر [3] .

هذه هي الروايات التى وردت حول كيفية قتل الخليفة العباسي المستعصم - الذي قيل أنه قد قتل في قرية " وقف " [4] في أول مرحلة من رحلته بعد الفتح [5] .

بينما أورد المؤرخون العرب وأهل السنة طريقة قتل المستعصم لم يذكرها المؤرخون الشيعة ، بل اكتفوا بذكر قتله [6] ، وكذلك مؤرخو الفرس ما عدا وصاف [7] الذي قال : أدرجوه في لبد تجنبا لسفك دمه ثم قتلوه وهو في لبده .

---

(1) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ٥/١١٥٠ .

(2) أخبار الدول ١٨١ .

(3) إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٨ .

(4) جامع التواريخ ٣٠٤ الترجمة ٢/٢٩٢ .

(5) تاريخ مختصر الدول ٤٧٥ .

(6) جامع التواريخ ٣٠٤ - تاريخ فاتح العالم جهانگشای ٢/٣٢٠ .

(7) تاريخ وصاف ٤٠ .

كما توقف عن ذكر طريقة القتل كل من ابن العبرى وابن الطقطقى وقال الأخير : ثم أوصل إلى الياسا هو وولداه الأكبر والأوسط ، أما بناته فأسرن ثم استشهد المستعصم في الرابع من صفر ٦٥٦ هـ [١] .

استشرى القتل في بنى العباس ، ولم يُبق هولاكو منه أحدا سوى ابنه الأصغر مباركشاه - الذي وهبه إلى زوجته والتي سلمته لخواجه نصير الدين الطوسى - وزوجوه امرأة مغولية [٢] ، فأنجب منها ولدين [٣] ، وأسرت بنات الخليفة فاطمة وخديجة ومريم[٤] .

نهب بغداد — وعدد قتلاها :

كان المغول شعبا همجيا ، يدمر في طريقه كل حضارة ومدنية يسفكون الدماء دون مبرر ، وكان هولاكو على شاكلتهم يأتي على الأخضر واليابس[٥] ، ويقوم جنوده بالتخريب والتدمير والنهب والسلب والقتل ، ليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء ، يقتلون الرجال والنساء والأطفال ، وكأن قصدهم إفناء النوع وإبادة العالم لا قصد المال والملك[٦] .

وسجل رشيد الدين [٧] أفعالهم في بغداد - وهو مؤرخهم فقال : إندفع الجنود مرة واحدة إلى بغداد ، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس ما عدا قليلا من منازل الرعاة وبعض الغرباء .. وقد أحترق أكثر الأماكن المقدسة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد وقبور الخلفاء .

---

(١) الفخري ٣٣٦ .

(٢) عباس إقبال (انظر الترجمة المرفقه) .

(٣) جامع التواريخ ٢٤٢ الترجمة ٢/٢٩٤ .

(٤) البداية والنهاية ١٣/٢٠٣ تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم ٤/١٦١ .

(٥) الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين - أسرة هولاكو ١٢ .

(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٦٧ .

(٧) جامع التواريخ ٢/٢٩١ - ٢٩٣ .

وقد استدعى هولاكو العلماء والفقهاء ليحضروا عقد المصالحة بينه وبين الخليفة – على حد زعمه – فكلما حضرت طائفة ضربت أعناقهم ، وصار يخرج طائفة بعد طائفة حتى الرعية بلا راع ، ودخل التتار بغداد وبذلوا السيف ، واستمر القتل أربعين يوما ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة [1] .

لقد قتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون [2] .

يقول أوهسون في كتابه تاريخ المغول : لم يترك المغول من آثار سوى الأطلال والخراب والعظام البشرية ، كانوا يذبحون الرجال والنساء والأولاد من الوريد إلى الوريد ببرودة أعصاب ... والغريب أنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال الهمجية لا بدافع الحقد ولا الانتقام وإنما بدافع الغريزة الوحشية الكامنة في أعماقهم ، بينما يقول دافيس : المؤرخ الذي رثى بغداد: هلكت بغداد حيث مرت جحافل المغول ،وبدا هؤلاء أن لا هدف لهم سوى المذابح والدمار والإبادة [3] .

كان الناس يهربون من القتل إلى الأسطح فيقتلونهم حتى تجرى الميازيب من الدماء ، ولم ينج أحد منهم في المساجد والجوامع والربط سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم وإلى دار ابن العلقمي وطائفة

---

[1] شذرات الذهب ه/٢٧١ – أخبار الدول للقرماني ١٨١ تاريخ الخلفاء ٤٧٢ – منهاج السراج ٤٢٧ – تاريخ وصاف ٣٧ مختصر تاريخ البشر لأبي الفداء ٢٠٣/٣ – مآثر الأنافة ٩٢/٢ .

[2] البداية والنهاية ٢٠١/١٣ .

[3] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٧ .

من التجار ، وأخذوا أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم [1] .

لقد اختلف المؤرخون في عدد القتلى فقال بعضهم إن عدد القتلى ثمانمائة ألف [2] ، وقال آخرون : تسعمائة ألف وقال بعضهم ألف ألف وثلاثمائة ألف [3] ، وقال آخرون ألفى ألف نفس [4] ومنهم من قال ألف ألف وثمانمائة [5] .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في عدد القتلى فإن رشيد الدين فضل الله ووصاف الحضرة وابن العبري وابن طبا طبا ، لم يذكروا رقما محددا ، إلا أن مصلح الدين لارى قد ذكر في تاريخه نقلاً عن كلشن خلفا أن عدد القتلى لا يتعدى ثمانين ألفا [6] .

ويبدو أن د. محمد موسى هنداوى [7] يرى أن الأرقام السابقة فيها إغراق في المبالغة وأنها تلوين للتاريخ باللون الأسود القاتم استغلالا لهذه الحادثة ، ومرضاة لمجاراة شعور العداء العام ضد هؤلاء الغزاة .

ويقول أيضا [8] : إن بغداد لم تلق ما لقيته المدن الأخرى على أيدي التتار ، وسبب ذلك أن هولاكو كان يريد أن يحتفظ ببغداد لنفسه .

وإذا كان أستاذنا الجليل د. هنداوى يشك في عدد القتلى - استنادا إلى أن هولاكو كان يريد بغداد لنفسه ، أو استنادا إلى أن بعض المؤرخين لم

---

(1) البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ .

(2) تاريخ كَزيدة ٥٨٠ .

(3) تاريخ ابن خلدون ١١٥٠/٥ .

(4) البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ - أخبار الدول ١٨١ .

(5) شذرات الذهب ٢٧١/٥ .

(6) سعدى الشيرازى ٣٦ .

(7) سعدى الشيرازى - شاعر الإنسانية القاهرة ١٩٥١ ص ٣٦ .

(8) المصدر نفسه ٣٤ .

يعط رقما محددا ، فهذا الأمر يحتاج لإعادة نظر فهولاكو لم يستقر في بغداد إلا أياما قليلة ، وتركها لسوء هوائها، ولم تكن الأحداث في قراقورم تسمح له أن يتجه صوب همدان ، أما الاستناد إلى عدم ذكر عدد القتلى بالتحديد عند رشيد الدين ووصاف وابن الطقطقى فهذا لا يعنى أن عدد القتلى كان قليلا ، ولم يكن مستبعدا هذه الأرقام العالية للقتلى لأن هذا الأمر لم يكن مستغربا على المغول – الذين كانوا يقيمون منائر من رؤوس القتلى في كل البلاد التى مروا بها ، والذين بقروا بطون النساء للبحث عن الجواهر والذهب ، ليس بمستغرب عليهم أن يبيدوا مدينة عامرة مثل بغداد ، وأن يقتلوا أغلب سكانها .

بغداد بعد خرابها .

بعد أن انتهي الجيش المغولي من القتل والنهب والسلب ، ظلت الجثث في الشوارع والحارات عدة أيام حتى تعفنت ، وظهرت الأوبئة ، وأصبح من الصعب تحمل رائحة القتلى في المدينة المدمرة ، فانسحب منها هولاكو وتركها خرابا يباباً .

وأقام هولاكو علي بغداد عدة رجال هم [1] : -

١- على بهادر شحنة لبغداد ومشرفا على الحرفيين والتجار وكان أحد قادة هولاكو ، فعاث فسادا في بغداد .

٢- الوزير ابن العلقمى : ظل في منصبه وزيرا حتى مات بعد عدة أشهر .

٣- فخر الدين الدامغانى : إمامي المذهب .

٤- نظام الدين عبد المعين : قاضى القضاة .

٥- ايلكا نوين وقرابوقا [2] : قائدان من قواد المغول .

---

[1] تاريخ فاتح العالم جهانكشاى ١٣/١- ١٥ .

[2] جامع التواريخ ٣٠٦ الترجمة ٢٩٥/٢ . ٣٠ .

٦- أحمد بن عمار : حاكم العراق العربي وكان مملوكا ، مهمته تدليك أقدام سيده ، ولكنه كشف للمغول مخازن الحبوب التى خبأهـا المستعصم ، فعينوه حاكما على بغداد (تقديراً لإخلاصه) .

٧- ابن ابغا : الحاكم الفعلي للعراق ، وكان في أصفهان .

وفي سنة ٦٥٧ هـ عين هولاكو عطا ملك جوينى على حكومة العـراق مشاركا عماد الدين عمر القزوينى ، واتهم عطا ملك بـالاختلاس ، وحُكـم عليه بالموت إلا أنه بمساعي أخيه شمس الدين بُرئت ساحته ، وعاد إلـى عمله ، وظل الجوينى على حكومة بغداد حتى عهد أباقا خان ، وقد اسـتعاد عطا ملك منصبه القوى في عهد أحمد تكودار بن هولاكو .

وذكر نصير الدين الطوسى [1] أن هولاكو أعاد الوزير وصاحب الديـوان فخر الدين الدامغانى وابن درنوس [2] إلى بغداد ، وكان ابن درنوس مشـرفا على الأوزان والحرف ، كما عين استوبهادر شـحنة البلـدة ،وأمرهـم أن يعمروا بغداد ويدفنوا الموتى من الناس والدواب ويبنوا الأسواق .

وأكدت جميع المصادر التاريخية أن هولاكو قد استبقى ابن العلقمى علـى الوزارة [3] ، إلا أنهم اختلفوا حول مصيره ، فمنهم من قال أن هولاكو ابقـاه مدة ثم اضطرب فقتله [4] ، وايد القلقشندى هذا القول [5] ولكن ابن الطقطقى يقول أنه مات بعد عدة شهور بعد مرض، ولم يحدد مرضا .

---

[1] ذيل جهانكَشاى ٣٧١/٢ - جامع التواريخ ٣٠٦ .

[2] هو عبد الغنى بن الدرنوس ، كان من المقربين للخليفة ، وكان في بادىء الأمر بطبخ الأحمـر ثم اسـتخدمه المستنصر مشرفا على أحد ابراج الحمام ثم ترقى الى رئيس البراجين في عهد المستعصم ثم غدا حاجبه الخاص.

[3] تاريخ ابن خلدون ١١٥٠/٥ - مآثر الانافة ٩٢/٢ - الفخرى ٣٣٨ .

[4] الفخرى ٣٣٨ - تاريخ ابن خلدون ١١٥٠/٥

[5] مآثر الانافة ٩٢/٢ .

وقال ابن كثير [1] : إنه مات كمداً وغما وحزنا وندما ، ويذكر حادثه تبين مدى ما وصل إليه شأن ابن العلقمى في عهد المغول ، إذ رأته امرأته يوما وهو راكب برذونا في أيام التتار ، فقالت له : يا ابن العلقمى أهكذا كان بنو العباس يعاملونك ؟ فوقعت كلمتها في قلبه ، وانقطع في داره إلى أن مات كمدا .

ويعزى البعض سبب حزنه إلى أنه أراد أن يقيم خليفة علويا فلم يوافقه المغول ، واطرحوه ، وصار معهم في صورة بعض الغلمان [2] .

أما عطا ملك جوينى صاحب كتاب جهانكشاى فقد ظل ببغداد بمساعدة أخيه شمس الدين الجوينى حتى سنة ٦٦٣ هـ وقتل عطا ملك جوينى سنة ٦٨١ هـ [3] .

نتائج سقوط بغداد ، وأثره على الأدب :

أدى سقوط بغداد إلى نتائج عديدة منها :

- القضاء على الخلافة الإسلامية ، التى كان المسلمون جميعا يلتفون حولها ولو روحيا .
- تحويل بغداد من عاصمة للمسلمين إلى مجرد مدينة تابعة لقراقورم .
- الاستيلاء على كنوز وخزائن لا حصر لها .
- تدمير العمائر والمساجد والقصور التاريخية .
- فتح الباب أمام هولاكو صوب الشام ومصر .
- القضاء على فكرة الوحدة الإسلامية .

---

[1] البداية والنهاية ١٣/٢٠٢ - ٢١٣ .

[2] تاريخ الخلفاء للسيوطى ٤٧٣ .

[3] انظر تاريخ گزيده لحمد الله المستوفي القزويني باهتمام د. عبد الحسين نوائى تهران ١٣٣٩ هـ ش ص ٥٩٣ - مقدمه تاريخ جهانگشاى للقزويني ليدن ١٩١١ - السعيد جمال الدين - علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم بغداد .

- ضياع الثروة الأدبية والكنوز الفنية .
- ابتهاج المسيحيين وصدمة المسلمين .
- تأثر المغول بالمدنية الإسلامية واعتناقهم الإسلام .
- أثر سقوط بغداد على الأدبين العربي والفارسي .

هذه هي نتائج سقوط بغداد والخلافة الإسلامية ، وسوف استعرض كل واحدة على حدة .

أولا : أدى سقوط بغداد إلى انقراض الخلافة العباسية - التى استمرت خمسمائة عام وأربع وعشرين سنة (من ١٣٢ هـ إلى ٦٥٦ هـ) ، وبانتهاء خلافة بنى العباس ، انتهت الخلافة الإسلامية في البيت العربي تماما ، وكانت هذه الحادثة من اكبر الأحداث في التاريخ الإسلامي ، وعلى الرغم من أن الخلافة العباسية في أخريات أيامها ، لم يكن لها نفوذ سياسي أكثر من بغداد ، إلا أن أهالي الممالك الإسلامية كانوا يعتبرون الخليفة أميرا للمؤمنين ووليا لأمرهم ، وكان له نفوذه الديني ، وكان سلاطين الممالك الإسلامية في الهند ، يسعون للحصول على منشور الخلافة عند توليهم السلطان ، ولكن بسقوط الخلافة العباسية سقطت جميع السلطات السياسية والروحية .

ثانيا : كانت بغداد مقرا للخلافة الإسلامية ، وكانت قبلة لرجال العلم والأدب والسياسة ، وبسقوطها أصبحت مدينة ثانوية ، يحكمها حاكم مغولي يدعى " شحنة بغداد " يعاونه صاحب الديوان ووزير وبعض القواد المغول ، ويتبع هؤلاء جميعا الحاكم المغولي أو الخان المغولي - هولاكو وأولاده من بعده .

ثالثا: لم تصبح بغداد مجرد مدينة تابعة فحسب ، بل انتهبت كنوزها وأموالها وثرواتها - التى جمعها الخلفاء العباسيون على مدى خمسة قرون ، واستولى هولاكو خان على ذهب وفضة وجواهر كثيرة نقل جزءا

منها إلى قراقورم هدية للقاآن ، وأقام قلعة منيعة في " شها " على شاطيء بحيرة أورمية ، جعلها مستودعا لكل ما استولى عليه من ذهب ومعادن وجواهر نفيسة .

رابعا : وكان من نتائج سقوط بغداد أيضا تدمير عمائرها وأبنيتها ومساجدها وقصورها وحدائقها التاريخية - التي أقامها الخلفاء العباسيون خلال خمسة قرون - فقد هجم المغول على بغداد فكانوا يحرقون الأخضر واليابس ، ولم يتركوها إلا خرابا يبانا ، وإذا كان هولاكو قد أمر ببناء مسجد الخليفة ومشهد موسى الكاظم [1] ، إلا أن هذا لا يرقى دليلا على أنه أعاد عمارتها كما كانت .

خامسا : كان سقوط بغداد بمثابة فتح للبوابة الشرقية أمام المغول ، فقد سهل فتحها لهولاكو التوجه صوب الشام ، وسهل لجيوشه الاستيلاء على معظم مدن الشام ، وفتح الباب للتوجه صوب مصر ، فكما كان الإسماعيلية عقبة في طريق هولاكو صوب بغداد ، كانت الخلافة العباسية في بغداد ، عقبة في طريقه صوب الشام ومصر وبزوالها فتح الباب إلى هذه النواحي ، لتكوين إمبراطورية عظمى .

سادسا : القضاء على فكرة الوحدة الإسلامية ، فقد أصابت غزوة المغول هذه الفكرة بضربة قاصمة [2] ، كما تراجعت مكانة اللغة العربية ، واقتصر استعمالها على العلوم الفقهية والفلسفية ، وكانت الخلافة العباسية بمثابة الرباط الذي يربط المسلمين جميعا، وبانفراط عقد الخلافة ، وسقوط بغداد ، انتهت فكرة توحيد المسلمين تحت خلافة واحدة .

---

[1] تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن - ٤/١٦١ .

[2] الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين - أسرة هولاكو - د. فؤاد عبد المعطي الصياد الدوحة ١٩٨٧ ص ١٦ .

سابعا: ضياع الثروة الأدبية والكنوز الفنية – التي جمعها الخلفاء المتعاقبون – من الشرق والغرب ، والتي أمر بترجمتها هارون الرشيد والمأمون ، وقد كان الخلفاء يهدفون من ذلك الحفاظ على الحضارات السابقة كالحضارة اليونانية والرومانية والفرعونية والفارسية .

لقد التهمت النيران تأليف كبار العلماء ، وألقيت الكتب طعمة للنيران أو في مياه دجلة[1]، وهكذا فقدت الإنسانية تلك الكنوز .

ويجرنا هذا الحديث إلى الحديث عن مكتبة بغداد – التى قيل أن المغول ألقوها في نهر دجلة على حد قول ابن خلدون [2] .

يقول ابن خلدون : " وألقيت كتب العالم – التى كانت بخزائنهم بدجلة معاملة بزعمهم لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن "[3] ، ويبدو أن د. هنداوى يعارض هذه المقولة [4] استنادا إلى أن هذا القول لم يرد بنص صريح عند ابن العبري وابن الطقطقي وصاحب الحوادث الجامعة، وفي تاريخ وصاف وجامع التواريخ وذيل جهانكشاى لنصير الدين الطوسي، وأن هؤلاء جميعا قد ذكروا حوادث السلب والنهب جملة ، ولم يرد ذكر لحرق أو إغراق لمكتبة بغداد ، ويشكك في قول ابن خلدون ومن سلكوا مسلكه ، ولكنني لا استبعد إتلاف مكتبة بغداد سواء كان ذلك متعمدا أو دون تعمد وأسال منذ متى والمغول يهتمون بالكتب والمكتبات حتى يحافظوا على مكتبة بغداد ؟ إنها عندهم غير ذى قيمة فلا يعرف الشيء إلا أهله واستدل على أن المغول أتلفوا مكتبة بغداد حرقا أو إغراقا بما فعله هولاكو بمكتبة الإسماعيلية حين استولى على قلاعهم ، ولا أعتقد أن هولاكو قد أمر بحرق

---

[1] مختصر تاريخ العرب . سيد مورعلى ٣٤٧ – تاريخ الإسلام ١٦١/٤ .

[2] كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١١٥٠/٥ .

[3] تاريخ جهانكشاى ٢٧٠/٣ – ٢٤٣/١ .

[4] المظفر قطز ومعركة عين جالوت ١٠٨ .

مكتبة الإسماعيلية لأنه كان ملحداً ، وهذه المكتبة تحوى كتب الملاحدة !!! ، إنه أحرق كتب الإسماعيلية لأنه عدو للعلم والمعرفة والحضارة ، ولا أعتقد أنه أحرقها بمشورة نصير الدين الطوسى أو علاء الدين عطا ملك الجوينى وهما عالمان فاضلان ، ولولا أن أطلع عطا ملك على بعض ما عندهم قبل حرق المكتبة العامرة ما عرفنا أخبارهم – التى أوردها عطاملك [1] .

ثامنا : وكان من نتيجة فتح بغداد أن حقق الصليبيون هدفهم ، وانتعشت آمالهم ، واعتبروا سقوط بغداد ، سقوط بابل الثانية ، واعتبروا هولاكو وزوجته دوقوز خاتون بمثابة " قسطنطين " و" هيلانه " وانهما أدوات من الله للانتقام من أعداء المسيح [2] .

أما بالنسبة للمسلمين فقد أصاب المقام المقدس للخلافة وأسرة آل النبي لطمة شديدة، وعم الحزن والاستياء في جميع بلاد المسلمين خاصة أهل السنة [3] ، وأراد سلاطين المماليك في مصر أن يبقوا على السلطة الروحية للخلفاء العباسيين ، فأقاموا واحدا منهم في القاهرة ولكن هيهات هيهات أن يكون له مثل ما كان لخلفاء بغداد !! .

تاسعاً: أدى سقوط بغداد إلى استقرار المغول في العراقين العربي والعجمي وفي إيران ، وكان نتيجة لمقامهم الجديد أن أحتك المغول بالمسلمين ، وعاشوا معهم ، وتعاملوا معهم ، وتحولوا من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار ، فتعرفوا على الإسلام ، وبدأوا يدخلون فيه ودخل خانات المغول أيضا في الإسلام ، وكان بركاى بن جوجى حاكم القبجاق قد دخل في الإسلام ، ودخل أيضا أحمد تكودار بن هولاكو ايضا في الإسلام ، وكان دخولهما فتحا جديدا ، وتكونت دولة الايلخانيين في إيران من أسرة

---

[1] تاريخ جهانكشاى ٣/ ٢٧٠ – ١/ ٢٤٣ .

[2] المظفر قطز ومعركة عين جالوت ١٠٨ .

[3] عباس إقبال (انظر الترجمة العربية) .



هولاكو وبدأت تثمر في مجالات العلم والأدب والثقافة وتحولوا من حياة الهمجية والبداوة إلى حياة التحضر والمدنية ، وكان هذا التغيير بفضل الإسلام .

أثر سقوط بغداد على الأدبين العربي والفارسي

إذا كان سقوط بغداد قد ترك آثارا سياسية واجتماعية على المجتمع المغولي والإسلامي ، ونتج عنه تحولات جديدة في المشرق الإسلامي كله ، لذا كان من اللازم أن يؤثر هذا الحدث الجلل على الشعراء ، لأنهم يمثلون وجدان الأمة .

أثار سقوط بغداد وجدان الشاعر العربي والفارسي على السواء فانشد الشاعر المراثي في رثاء بغداد والخلافة الإسلامية ، وشارك الشاعر الفارسي المسلم الشاعر العربي في أحزانه فأبدع لنا المراثي بالفارسية والعربية .

ومن الشعراء العرب الذي أثارهم سقوط بغداد الشاعر العربي سبط التعاويذى [1] ، والذي قال :

بادت وأهلوها معا فبيوتهم

ببقاء مولانا الوزير خراب [2]

وقال شاعر عربي آخر :

ياعصبة الإسلام نوحي واندبي

حزنا على ما تم للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه

لابن الفرات فصار لابن العلقمى [1]

---

[1] أبو الفتح محمد بن عبيد الله

[2] ديوان سبط صححه مرجليوث ١٩٠٣ .



ولتقي الدين بن أبي اليسر قصيدة مشهورة [1] في بغداد منها :

لسائل الدمع عن بغداد أخبـــار ... فما وقوفك والأحباب قد ســاروا

يازائرين إلى الزوراء لا تفــدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديـــار

تاج الخلافة والربع الذى شرفت ... به المعالم قــد عفــا إقفـار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثـــار

ناديت والسبى مهتوك تجُر بهـم ... إلى السفاح مـــن الأعداء دُعّار

---

[1] تابع الخلفاء ٤٧٣

أما الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي ، فقد استاء لسقوط بغداد ، وانشد قصيدتين ، إحداهما بالعربية ، والأخرى بالفارسية أما العربية فكانت في أثنتين وتسعين [1] بيتا يقول في أبياتها :

حبست بجفنى المدامع لا تجـــرى
فلما طغى الماء استطال على السكـــر

نسيم صبا بغداد بعد خرابهـــــا
تمنيت لو كانت تمـــر علـــى قبرى

لزمت أصطبارى حين كنت مفارقـــا
وهذا فراق لا يعالــــج بالصـــبر

أديرت كوؤس الموت حتى كأنــــه
رؤوس الأسارى قد رجحن من السكـــر[2]

بكت جدر المستنصريـــة ندبـــة
على العلماء الراسخين ذوى الحجـــر

نوائب الدهر ليتنى مت قبلهـــــا
ولم ار عدوان السفيه علــــى الحـــر

محابر تبكى بعدهم بسوادهـــــا
وبعض قلوب الناس أحلك من الحبـــر

مررت بصم الراسيات أجوبهـــــا
كخنساء من فرط البكاء علـى صخـــر

ثم يقول :

أيا أحمد المعصوم لست بخاســــر
وروحك في الفردوس عمر مع العسر

وجنات عدن حفت بكــــــاره
فلا بد من شوك على فنن اليمـــــر

---

[1] ذكر د. هنداوي انها تبلغ مائة وأثنين وعشرين بيتا (سعدى الشيرازى ٤١١) ٠٠-٠٠٠

[2] انظر صلات بين العرب والفرس والترك ١٦٩ ٠

نحوه مشتاق والــه ترحـــم

على الشهداء الطاهرين من الـــوز

فلا تحسبن الله مخلــف وعـــده

بأن لهم دار الكرامة والبشـــر

وفي قصيدة عربية أخرى يقول سعدي :

نعوذ بعفو الله من نار فتنـــة

تأجج من قطر البلاد إلى قطـــر

بدا وتعالى من خراســان قسطـل

فقلنا ركابنا لا يزول عن البـــدر

إلام تصاريف الزمـــان وجـــوره

كلفنا ما لا نطيق من الأجـــر[1]

وللشاعر بالإضافة إلى قصائده العربية قصائد باللغـــة الفارســية منـــها قصيدة في رثاء الخليفة المستعصم مطلعها :

" فليحذر الإنسان من تبدل الدنيا وتغير الزمان ، لأن خياله عاجز عن إدراك ما حدث "[2]

أما قصيدته الفارسية الأخرى وهي أكثر شهرة ، وتضم ثمانية وعشرين بيتا يقول فيها :

" حق للسماء أن تمطر الدمع الدموي ، على زوال ملك مســتعصم أمـــير المؤمنين "

" يا محمد إذا رفعت من التراب الهامة يوم القيامة ، فارفع الهامة وانظر تلك القيامة بين الخلق " .

---

[1] كليات سعدي نشر فروغي ص ٤١٢ .

[2] زنهار ازدور گيتي وانقلاب روزگار . ' . درخيال كسى نيامد كانچنان گرددچنين (كليـــات ســـعدي ٤٨٦) .

" أريقت دماء ابناء عمومة النبى المختار ، على ما كان موضع جبين السلاطين من غبار [1] " .

المغول بين البدواة والحضارة

كانت حياة العرب في الجاهلية حياة بدوية خالصة ، وخاصة حياة الأعراب - الذين كانوا يهيمون في الصحراء الشاسعة الشديدة الحرارة ، القليلة الخير ، وكان الأعراب في الجاهلية لا يقر لهم قرار ، ولا يطيب لهم مقام في أي مكان من قلب الصحراء ، فقد كانوا دائمي التجوال بحثا عن مصادر الماء والكلأ ، وكانت هذه الحياة لا تحتم الاستقرار ، ولما لم يتحقق شرط الاستقرار ، انعدم فيهم أسس وقواعد التحضر ، فالاستقرار شرط أساسي للتحضر ، وانتشر بين العرب السلب والنهب والإغارة ، وجاءت كلمة البداوة عكس كلمة الحضارة ، لتعبر عن هذا المفهوم .

وعلى الرغم من انتشار عادات سيئة بين العرب في الجاهلية إلا أن هذا لم يمنع من وجود عادات حسنة وقيم وأخلاقيات مقبولة ، وتوفرت للقبيلة بعض عناصر التحضر ، حيث كان يضم القبيلة نظام سياسي متعارف عليه ونظام اقتصادي محدود ، وكان هناك حياة أدبية وثقافية ونتاج علمي محدود كما كان هناك قيم وعادات وتقاليد متعارف عليها، ولكن هذا لم يرق بالقبيلة العربية الجاهلية إلى درجة التحضر ، وظل السلوك البدوي مسيطراً على حياة القبيلة ، حتى جاء الإسلام ، ودخل العرب جميعا الإسلام ، وحملوا رسالته إلى البلاد المجاورة ، وكانت هذه البلاد - مثل فارس وبلاد الروم

---

[1] انظر الأبيات وترجمتها في كتاب صلات بين العرب والفرس والترك د. حسين مجيب المصري - القاهرة ١٩٦٩ - ص ص ١٧١ . والنص الفارسي للأبيات .

" آسمان راحق بود كرخون ببارد برزمين   برزوال ملك مستعصم أمير المؤمنين

" أى محمد كر قيامت مى برآرى سرزخاك   سربرآور وين قيامت درميان خلق بين

" خون فرزندان عم مصطفي شد ريخته   هم برآن خاكى كه سلطانان نهادندى جبين

(كليات سعدى ٤٨٦) .

ومصر أصحاب حضارة ، فتحضر العرب ، ليس بسبب اتصالهم بالأمم المتحضرة فقط بل بسبب اعتناقهم الإسلام أيضا ، فقد كان الإسلام هو الوعاء الذي انصهرت فيه جميع الحضارات القديمة ، وامتزجت هذه الحضارات بحضارة الإسلام ، ونتج لنا حضارة جديدة سميت باسم الحضارة الإسلامية أو حضارة المسلمين ، وشملت هذه الحضارة علاصر فارسية ويونانية وفرعونية إنصهرت هذه العناصر بقيم وأصول الحضارة الإسلامية، وصارت هذه الحضارة جزءا لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية .

لقد كان العربي قبل الإسلام بدويا يتصرف بالسليقة ، والبداوة لا تعني الإغراق في الجهالة والهمجية ، بل إن العرب قبل الإسلام أطلق عليهم بدوا لسكناهم البادية من الأرض [١] ، التى لا حضر فيها ، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعى في الصحارى قيل : قد بدوا ، والاسم بدو ، إذن البدو مجرد لفظة تطلق على من يقطن الصحراء حتى وإن جاء من الحضر .

ويقولون من بدا جفا : أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب [٢] وهذا لا يعنى أن البداوة سلوك يكتسب من البيئة ، وفي الحديث : لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية، قال ابن الأثير إنما كره شهادة البدوي لما فيه من جفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع وإليه ذهب مالك والناس على خلافه .

وهؤلاء البدو والأعراب هم الذين حملوا الإسلام ، وتحولوا إلى أصحاب دولة وحضارة زاهرة ... ، فهل يا ترى تكوينهم الدولة وإقامتهم لحضارة ينفى عنهم صفة البداوة .... ؟ وإذا ظل العرب على بداوتهم ولم يدخلوا الإسلام هل يا ترى كان بإمكانهم إقامة دولة وحضارة ؟ وإذا كان الأمر كذلك

---

(١) لسان العرب لابن منظور دار المعارف مادة بدو ١/٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ونفس المادة ١/ ٢٣٥ .



فلماذا لم يتحقق هذا قبل الإسلام ؟ هذا لو استثنينا ما قام به عرب الجنوب قديما .

والمغول كانوا على شاكلة العرب ، كان المغول شعبا همجيا تغيير قبائله على بعضها البعض ، فتسلب وتنهب وتقتل ، وظل شعبا همجيا جلفا عدوا للحضارة ، حتى دخلوا الإسلام ، فأعادوا عمارة ما هدموه ، وأقاموا مدنا وشيدوا حضارة ، وتركوا تراثا أدبيا وثقافيا رائعا .

ما الفرق إذن بين العرب قبل الإسلام والمغول قبل إسلامهم ؟ ... كان العرب قبل الإسلام أقل جفاء من المغول ، كانت هناك كثير من القيم الأخلاقية تنتشر بينهم ، فالعربي كان كريما شجاعا ينزع للمساعدة والنجدة كان لا يسلب لمجرد السلب ، وإنما ليعيش ، ولم يكن الصعاليك يغيرون لمجرد الإغارة ، بل للحصول على المال اللازم لإعاشتهم ، وتوزيع ما تبقى على أهل الخير كانوا يغيرون ليأكلوا وليس لكنز المال ، لم يكن العربي ميا لا لسفك الدماء حباً في السفك أو لشغفه برؤية منظر الدماء وجثث القتلى ، لم يحارب العربي لمجرد الحرب بل من أجل البقاء ، وحماية للمراعى مصدر العيش أو الدفاع عن شيم وكرامة القبيلة .

أما المغولي حتى عهد هولاكو ، كان يقتل لمجرد القتل ، ويسفك الدماء لمجرد السفك، ويميل لرؤية الدماء التى تنزف ،وسماع آهات المتأوهين ، لم يكن هناك من أخلاقيات تذكر ، لا يحرمون أكل شىء حتى أنهم كانوا يأكلون جميع الدواب [1] .

إنهم كانوا يقاتلون وليس في قتالهم استثناء ولا إبقاء ، يقتلون الرجال والنساء والأطفال وكأن قصدهم إفناء النوع ، وإبادة العالم ، لا تقصد الملك والمال [2] .

---

[1] مختصر تاريخ العرب ٣٣٤ .

[2] تاريخ الخلفاء ٤٦٧ .



ويستوقفني مقارنة كتبها جرجي زيدان [1] قال فيها : " أكتسح بدو المغول على ما يحيط بلادهم من الممالك العامرة ، اكتسحوها في بضعة عشر عاما ، كما أخرج بدو العرب في أول الإسلام ، وافتتحوا مملكتي الروم وفارس في نحو تلك المدة ، وفي الحالين كان النصر للبداوة على الحضارة، لأن المسلمين كانوا في أيام جنكيز خان قد تحضروا وانغمسوا في الترف ، وانقسموا على أنفسهم ، كما كان الروم والفرس عند ظهور الإسلام والتاريخ يعيد نفسه " .

وفي هذا القول مغالطة كبرى ، فالعرب البدو – الذين اكتسحوا مملكتي الروم والفرس – لم يكونوا هم العرب قبل الإسلام ، لقد اكتسحوا مملكتي الروم والفرس بفضل الإسلام – الذي رفعهم من البداوة إلى الحضارة فأصبحوا خاضعين لنظام سياسي واقتصادي واجتماعي وأدبي وثقافي ، وأصبح هناك وحدة تجمع هؤلاء البدو وهى " الإسلام " ، وقد فتحوا هذه البلاد بفضل الإسلام وإذا لم يكن هذا القول صحيحاً فلماذا لم يفتح هؤلاء البدو تلك الممالك قبل الإسلام .. ؟ بل أنه من العجيب أنهم كانوا لا يستطيعون التحرش بأي منها .

أما المغول فعندما اكتسحوا العالم الإسلامي ، فقد اكتسحوه بفضل القوة التنظيمية – التى نظمت هؤلاء البدو – وجمعتهم تحت قيادة واحدة ، ثم اطلقت هؤلاء الجياع الهمج على أرض غنية فيها آمالهم ومرامهم .

والاختلاف الثاني بين العرب والمغول ، وهو أن العرب – الذين خرجوا بالإسلام – لم يكونوا سفاكين للدماء ، لم يقتلوا لمجرد القتل ، ولم يفعلوا أي شيء مما فعله المغول من قتل ونهب وسلب .

---

[1] تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٥٠٨ .

ويميل بعض المؤرخين – وخاصة الذين عرفوا فضل المغول بعد إسلامهم – إلى التماس الأعذار لهم ، ويميلون إلى تخطئة من يظن أنهم كانوا مجرد شعب همجي بربري مغير[1]، ويعترض البعض على بعض الأحداث التي ارتكبها المغول – مثل أحداث القتل والنهب وحرق مكتبة بغداد، ويرى أن المؤرخين الآخرين يلونون التاريخ بلون قاتم[2].

ويستند الرأي الأولى إلي أن المغول اهتموا كل الاهتمام بتشجيع العلوم ذات الخطورة العلمية كالطب لحفظ الأبدان والرياضة والهيئة لاختيار الأوقات ، وأن هولاكو أقام مرصداً كبيراً في مدينة مراغة بأذربيجان أعده بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه ، وأن العالم الفلكي نصير الدين الطوسي – الذي كان يشرف على هذا المرصد – قد الحق به مكتبة تحوي أربعمائة ألف مجلد .

والرد على هذا سهل وميسور ، فالمغول اهتموا بالرياضة والصيد والقنص ، وذلك لتدريب جيوشهم ، فهم لم يهتموا بالطب لعلاج المرضى ، ولم يهتموا بالرياضة إلا لحفظ أبدان جندهم استعداداً لقتال الأعداء ، كما أنهم كانوا مغرمين بالفلك والتنجيم ، وليس بناء مرصد مراغة إلا من هذا القبيل ، ولو كان شعبا حضاريا بالفعل لاهتموا بما ينفع الناس ، وشعوب البلاد المفتوحة ، فهيلوا طرق التجارة وشقوا قنوات الزراعة ، وأقاموا المدارس للتعليم والمساجد والمعابد للعبادة .

أما الرأي الثاني فيستند إلى أن المؤرخين عند حديثهم عن عدد القتلى في بغداد قد بالغوا فيه حتى وصل عدد القتلى إلى مليوني قتيل ، والمعروف أن أقل إحصاء للقتلى هو ثمانون ألف وأعلى إحصاء هو مليونان ، ويعترض هذا الرأي على هذا الرقم ، ويرى أن هذا تلوين للتاريخ بلون

---

[1] رأى د. فؤاد عبد المعطى الصياد – المغول في التاريخ ١٤ .

[2] رأى د. محمد موسى هنداوى – سعد الشيرازى ٢٣ .

قات، فهل يا ترى لو أن عدد القتلى في بغداد هو ثمانون ألف قتيل فقط يكون هذا الرقم غير قاتم اللون ؟ يكفى أنه لم يبق في بغداد حي إلا من اختفى في بئر أو قناة وهذا رأى أغلب المؤرخين حتى الذين لم يعطوا رقما محددا لعدد القتلى فهل كان في بغداد ما يكفى من آبار وقني لاختفاء عشرة آلاف مثلا ؟ إذن أين الباقي ، وكان عدد سكان بغداد في ذلك الحين يزيد عن مليوني ونصف المليون ، قد يقال أن الباقي فرصوب الغرب فكيف فروا والجيش قد التف حول المدينة من كل جانب ؟ ..

وصور القتل والسلب والنهب التى قامت بها الجيوش المغولية قبل هولاكو وفي أيامه، توضح مدى الهمجية التى كانوا عليها ، فلقد دمروا قلاع الإسماعيلية ، وأمروا بإحراق مكتبتهم العامرة بحجة أنها تحمل أفكار الملاحدة ، فمن يكون هو حتى يفعل ذلك ؟ إن هولاكو لم يكن مسلما ولا مسيحيا ولا يهوديا ولا بوذياً ، فكيف له أن يقرر أن هذه كتب الحاد ؟ ..

وعندما دخل هولاكو بغداد قتل اللآلاف من العلماء ، وقتل الخليفة العباسي ، واسقط الرمز المقدس عند المسلمين ، وألقى بكتب العلم التى كانت بخزائن الخلفاء بدجلة ، واعتزم إضرام النار في بيوت بغداد فلم يوافقه أهل مملكته [1] ، وربما كان أهل مملكته يبغون الحصول على غنائم أكثر .

لم يترك المغول بغداد إلا أطلالا يلفها الخراب وتملأها المظالم البشرية ، فكانوا يذبحون الرجال والنساء والولدان من الوريد إلى الوريد ببرودة أعصاب ... والغريب أنهم كانوا يقومون بهذه الأعمال الهمجية لا بدافع الحقد والانتقام ، وإنما بدافع الغريزة الوحشية الكامنة في أعماقهم [2] .

---

[1] تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥٠

[2] إمبراطورية على صهوات الجياد ١٤٧ .

انهم كانوا يقتلون ولا هم لهم ولا هدف إلا المذابح والدمار والإبادة [1] ، فهل كان العرب قبل الإسلام أو بعده كذلك . . .

ومع كل هذا التبدى والجفاء والهمجية ، كان هناك ومضات خير ، قد تغير اللون القاتم لسيرة هولاكو ، فقد أمر بدفن الموتى وتعمير بغداد بعد خرابها ،وأمر ببناء الأسواق وإعادة بناء مسجد الخليفة ومشهد موسى الكاظم [2] .

وما يحسب له أيضا أنه أمر نصير الدين الطوسي ببناء مرصد مراغة ، وقد أقام نصير الدين المرصد في هذا المكان ، وأقام بجواره دار حكمة ورتب فيها الفلاسفة ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها لكل طبيب في اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم ودار حديث لكل محدث نصف درهم [3] ، ويلاحظ حتى في قيمة العلوم التي كان نصير الدين يهتم بها ، حيث كانت الحكمة على رأسها والفلاسفة أعلى درجة ، وهذا يتمشى مع مذهبه الشيعي ؟ [illegible]

والمغول الذين صورهم الشاعر في قوله :

جاءوا وهدموا وأحرقوا [illegible] وقتلوا ونهبوا وذهبوا [4]

والذين صورهم [illegible] بقوله :

" هجموا وهدموا وأحرقوا وأزهقوا ونهبوا " [5] ، والمغول الذين بقروا بطون النساء [illegible] وارتكبوا المذابح ، وهتكوا الأعراض ، [illegible] [6] .

---

[1] المصدر نفسه ١٤٧ .

[2] تاريخ فاتح العالم جهانگشاى ٢/٣٧١ - ابن العبري ٤٧٥ .

[3] البداية والنهاية ١٣/٢١٥ .

[4] " آمدند وكندند وسوختند .. وكشتند وبردند ورفتند " جهانگشاى ٨٣/١ " .

[5] تاريخ الدول ٨٦ .

هؤلاء البربر الهمج – هم الذين إعتنقوا الإسلام واستقروا في البلاد المفتوحة ، وأقاموا دولة من أعظم الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي هي دولة الايلخانيين ، كانت دولة متحضرة أقامت مدنية رائعة ، مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا [1] ، وهذا كله بفضل الإسلام – الذي حولهم – كما حول العرب من قبل – من شعب همجي بربري بدوي إلى شعب مدني حضاري .

وهنا نقطة هامة يجب الإشارة إليها ، وهى أن الشعب الغازي المنتصر هو دائما صاحب الغلبة ، ينشر لغته وثقافته ودينه في البلاد التى يفتحها ، كما فعل العرب المسلمون ، عندما فتحوا بلاد الفرس والروم ، ومثل المسلمين الذين فتحوا الهند وأسبانيا، ومصر وشمال أفريقيا ، وكما فعل الفرنسيون والإنجليز والأسبان والبرتغاليون في الدول التى استعمروها في آسيا وافريقيا والأمريكتين ، لكن القضية هنا مختلفة تماما ، فالشعب المنتصر إعتنق دين الشعب المنهزم وتعلم لغته ،وأخذ ينهل من حضارته وثقافته، وهذا كله بفضل الإسلام وحضارة الإسلام والمسلمين .

الوزير ابن العلقمى

هو مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي وزير المستعصم بالله [2] ، أثيرت حوله خلافات كثيرة بسبب علاقته بالمغول ، فقيل أنه كان خائنا مولاه الخليفة ، واتصل بالمغول ، وأطمعهم في بغداد ، وهناك من ينفى هذه الاتهامات عنه ، وأنه أراد حماية الخليفة والخلافة لكن الخليفة لم يستمع لنصحه ، فكان ما كان .

---

[1] انظر كتاب الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين د. فؤاد عبد المعطى الصياد .

[2] شذرات الذهب ٥/٢٧٢ .

يقول ابن الطقطقى ، وهو من المدافعين عن ابن العلقمى : إن ابن العلقمى ،أسدى أصلهم من النّيل ، وقيل لجده العلقمى لأنه حفر النهر المسمى بالعلقمى واسمه القازانى[1]، وقد مدحه ابن الطقطقى وأثنى عليه .

كان ابن العلقمي شيعي المذهب ، رافضيا [2] ، أهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد [3] ، وهذا بسبب مذهبه الديني .

إن الوزير كاتب المغول ،وأطمعهم في بغداد ، وكان يطالع التتار بأخبار الخليفة ، وطالب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك وتأهبوا لقصد بغداد .

ويقول ابن العماد الحنبلى [4] : أن ابن العلقمى كاتب التتار وحرضهم على قصد بغداد لأجل ما جري على أخوانه الرافضة من النهب والخزى ، فظن المخزول أن الأمر يتم له ، وأنه يقيم خليفة علويا فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو وسهل عليه أخذ بغداد ، وطلب أن يكون نائبا له عليها فوعدوه بالأماني .

ويقول ابن كثير[5] : أنه نتيجة للفتنة التى قامت بين الرافضة وأهل السنة ، ونهب الكرخ ودور الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمى كان ذلك من أقوى الأسباب في ممالأته للتتار ، ثم يقول : أنه كاتب التتار ، وأطمعهم في أخذ البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وحكى لهم حقيقة الحال ، وكشف لهم ضعف الرجال طمعا منه أن يزيل السنة بالكلية وأن يظهر البدعة الرافضة .

---

[1] الفخري ٣٣٧ .

[2] ابن خلدون ٤٩/٥ .

[3] تاريخ الخلفاء ٤٦٥ .

[4] شذرات الذهب ٢٧٠/٥ .

[5] البداية والنهاية ١٩٦/١٣ .

لقد اتهم ابن العلقمي بأنه كاتب المغول ، والذين يتهمونه هم ابن خلدون وابن الوردي والقرماني والسيوطي وابن العماد الحنبلي وابن العبرى وابن كثير وابن الأثير وأبو الفدا والنويري والذهبي ووصاف والمقريزى والجوزجانى ونور الله الششترى .

يقول ابن خلدون [1] : أنه أثناء توجه هولاكو إلى قلعة آلموت بلغه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ، في كتاب ابن الصلايا صاحب أربل ، يستحثه للمسير إلى بغداد، ويسهل عليه أمرها ... وكان ابن العلقمي قد دس إلى ابن الصلايا بأربل ، وكان صديقا له بأن يستحث التتر لملك بغداد ، وذكر ابن الوردى في تاريخه نفس هذا المضمون .

يقول القرمانى [2] : إن ابن العلقمي باطن التتار وناصحهم واطمعهم في المجيء إلى العراق ، وأخذ بغداد ، وقطع الدولة العباسية ليقيم خليفة في آل على ...

ويشير المقريزى [3] إلى خيانة ابن العلقمي ،وأن هذه الخيانة كانت قبل نهب الكرخ واعتداء السنة على الشيعة ، بل كان هذا سنة ٦٥٤ هـ حين وصلت جواسيس هولاكو إلى ابن العلقمي .

ولم يقف في صف ابن العلقمي سوى ابن الطقطقي الذى اثنى عليه كثيرا وامتدحه ، وتبعه في ذلك جمع من مؤرخي الشيعة .

لقد ذهبت الخلافة العباسية على يد ابن العلقمي الشيعي هذه الخلافة التى كان يخاف ذهابها المنصور والمهدى والرشيد ، وقد نكبوا وزراءهم وقوادهم خوفا من ضياعها ، فإذا ما ضعف خلفاء بني العباس صارت الخلافة مطمعا لملوك السلاجقة وآل بويه حتى جاء ابن العلقمى وأضاع ما

---

[1] تاريخ ابن خلدون ١١٤٩/٥ .

[2] كتاب أخبار الدول ١٨٠ .

[3] السلوك ١ ق ٢ ص ٤٠٠ .

تبقى منها ، واستقدم المغول ، أو بالأحرى ساعد المغول وسهل لهم ذلك ، لأن المغول كانوا لابد آتين إليها ، فماذا فعل ابن العلقمى للقضاء على الخلافة ، أو ما هي دواعي اتهامه بالخيانة ؟ .

أتهم ابن العلقمى بالخيانة لأنه كاتب المغول وأطمعهم في بغداد وسهل لهم ذلك ، وهذا متفق عليه من مؤرخي العرب والفرس السنيين وبعض الشيعة ، وهذه الخيانة تكاملت فصولها خلال مراسلات هولاكو للخليفة وأثناء حصار وفتح بغداد ، وبعد سقوط بغداد بالفعل .

ومن التهم الموجهة إلى ابن العلقمى أنه كان كلما جاء خبر من التتار كتمه عن الخليفة ، ويطالع التتار بأخبار الخليفة [1] .

وكان جيش الخليفة مائة ألف مقاتل ، لم يزل يجتهد ابن العلقمى في تقليلهم إلى أنه لم يبق سوى عشرة آلاف [2] ، وأشار على الخليفة بقطع أكثر الجند ومصانعة التتار [3] ومصانعة ...

وكلما أرسل هولاكو رسالة إلى الخليفة ، كان ابن العلقمى يطلب من الخليفة إرسال الهدايا والتحف وإعلان الطاعة والولاء لهولاكو ولم يطلب من الخليفة إعداد الجيوش والتوجه لقتالهم ، وقد عرض على الخليفة أن يخرج إليهم ، وسيقوم هو بنفسه ويصلح بينه - أي بين الخليفة - وهولاكو [4] ، وعندما حاصر المغول بغداد ، لم يخرج لمحاربتهم وإنما خرج إليهم ، واستوثق لنفسه ،وعاد إلى الخليفة وقال له : إن هولاكو يبقيك

---

[1] تاريخ الخلفاء ٤٦٥ .

[2] البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ - مآثر الأنافة ٩٢/٢ .

[3] السيوطى ٤٦٦ القرمان ١٨٠ .

[4] القرمان ١٨١ .

في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ، ويريد أن يزوج ابنته بابنك ، وحسن له الخروج [1] .

وعندما خرج الخليفة لم يحدث ما وعده به ابن العلقمي ، بل أنه أشار على هولاكو ألا يصالح الخليفة ، وقال له : متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاما أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك ، وحسن له قتل الخليفة [2] .

ومما يؤكد التهم الموجهة لابن العلقمي أنه أثناء فتح بغداد ، أحرقت الدور والقصور ، ولم تخرب دور ابن العلقمي ، يقول ابن كثير [3] . لم ينج أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار ابن العلقمي .

ولو لم يكن ابن العلقمي خائنا ، ما عينه هولاكو وزيرا كما كان ، وما ابقاه في مكانته، وإن كان هناك اختلاف بين كونه وزير خليفة أو وزير حاكم " شحنة " ، وقد كان يود أن يكون وزيرا لخليفة علوي ولم يهنأ حتى بمنصب وزارة بغداد كثيرا فقد مات في نفس السنة أي سنة ٦٥٦ هـ .

ويبقى لنا أن نسأل لماذا فعل ابن العلقمي هذا ؟ ولماذا ارتكب هذه الخيانة ؟ . . .

تتركز أسباب خيانة ابن العلقمي في نظر من يتهموه بالخيانة – في أنه كان شيعيا رافضيا [4] ، استاء من جراء الفتنة التى حدثت في بغداد سنة ٦٥٥ هـ لبنى مذهبه من الشيعة – ولما أصابهم من مصائب من السنة وبسبب أمر أبى بكر بن الخليفة لركن الدين الدواتدار لنهب الكرخ ، وقام

---

[1] القلقشندى ٩٢/٢ – ابن كثير ٢٠١/١٣ .

[2] البداية والنهاية ٢١٠/١٣ .

[3] البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ .

[4] تاريخ الخلفاء ٤٦٥ – البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ – تاريخ ابن خلدون ، ١١٤٩/٥ .

العسكر بارتكاب جرائم اعتداء وهتك للأعراض ، وزادوا فركبوا منهن الفواحش ونهبت دور قرابات الوزير ،وكان ذلك من أقوى الأسباب في ممالأته التتار [1] .

وسبب آخر مرتبط أيضا بتشيعه وهو أنه كان حريصا على إزالة الدولة العباسية ونقلها إلى العلوية [2] ، ولهذا أرسل الرسل في السر إلى المغل وخامرهم ، وكاتبهم لإزالة العباسيين .

وهناك إشارة إلى أنه كان يتمنى أن يصبح نائبا عن المغول بعد أن يقضوا على الخلافة العباسية [3] .

ويشير ابن الطقطقى [4] إلى نقطة هامة وهى أنه كان يترقب العزل والقبض صباح مساء ، وقد استلفتت هذه الجملة نظري ، فهذا يعني أنه مشكوك في أمره ،ولماذا لا يكون ترقبه للعزل دافعا لخيانته ؟ خاصة أنه وجد نفسه غريبا بين حكام سنيين .

أما الذين يدافعون عن ابن العلقمي ، فيرون أنه لم يكن خائنا، وليس له علاقة بهجوم المغول واقتلاع بنى العباس ، وأن ما نسبه المؤرخون السنيون هو محض افتراء يرجع لتعلقهم بالخلفاء ، وخاصة أن ابن العلقمى إيرانى شيعى المذهب [5] .

ويرى ابن الطقطقى [6] أن خواص الخليفة كان يكرهون ويحسدون ابن العلقمى ، بينما كان الخليفة يعتقد فيه ويحبه ، وقد نسب الناس إليه أنه

---

[1] البداية والنهاية ١٩٦/١٣ – مآثر الانافة ٩٠/٢ – تاريخ التمدن ٣ /

[2] تاريخ الخلفاء ٤٦٥ – البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ .

[3] أخبار الدول للقلقشندى ١٨١ .

[4] الفخري ٣٣٣ .

[5] عباس إقبال .

[6] الفخري ٣٣٨ .

خامر وليس ذلك بصحيح ، ودليل ابن الطقطقى على عدم مخامرته في أن هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه ، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه .

والدليل الذى يسوقه ابن الطقطقى دليل اتهام وليس براءة بذلك لأنه تآمر معهم على اسقاط الخلافة فنال جزاء خيانته للخليفة ، ولو كان ابن العلقمى شريفا مدافعا عن خليفته، ما الداعي إذن لكي يثقوا فيه ويوزروه ..

لم يجد ابن الطقطقى من يوافقه على مقولته إلا قلة من الشيعة والذين يرفضون دليله يستندون إلى أن ابن العلقمى صار مع المغول في صورة الغلمان [1] ، أو صار حوشكاشا للتتار بعدما كان وزيرا للخلفاء [2] ، وانه لم يكن صاحب مكانة عالية بل أنه صار تابعا لخادم [3] ولم يظفر ببغيته [4] ، وأنه لم يستمر طويلا ومات كمدا في نفس السنة ويقال أن هولاكو قتله [5] .

وعلى الرغم من محاولة ابن الطقطقى الدفاع عن ابن العلقمى إلا إن الإجابة – التى تقطع كل شك – حول خيانته ، نراها عند كاتب شيعي آخر[6]، يرى أن ابن العلقمى أقدم على هذا ، وإقدامه على ما فعل مشروع ، وأن هذا يدخل في حكم أداء مهمامه الإيمانية وتكاليفه المذهبية ، ويرى أن سفر القاضي شمس الدين القزوينى ، وسفر رسل البابا ولويس التاسع وسلاطين أرمينية ، هي نفس باعث المتدينين من أجل الحصول على أجر

---

[1] مآثر الانافة ٤٧٣ .

[2] البداية والنهاية ٢٠٢/١٣ .

[3] طبقات ناصري ٤١ – ٤٢ .

[4] شذرات الذهب ٢٧٢/٥ .

[5] مآثر الانافة ٩٢/٢ – النويري – نهاية لأرب ٢٥٩/٢٦ – تاريخ ابن خلدون ١١٥٠/٥ .

[6] عباس إقبال (انظر الترجمة العربية) .

أخروى ، وخدمة للدين والعقيدة ، وكل من سلك هذا الطريق لم يخجل قط ، ولم يعتقد أن هذا العمل خيانة .

إذن القضية ليست قضية خيانة ابن العلقمى ،وإنما هي قضية الشيعة ، الذين يرون أن العمل ضد أهل السنة عمل مشروع ، ومهمة دينية وتكاليف مذهبية يثاب عليها من يفعلها ولا أعتقد أن أهل السنة يرون هذه الرؤية .

مكانة ابن العلقمى الأدبية

كان ابن العلقمى أديبا ، من أجل فضلاء عصره ، كان مشهوراً بحسن الخط ونظم الشعر والإنشاء ، وكان يصاحب الفضلاء وأهل الأدب ، يسعى لجمع الكتب وجلب الأدباء والشعراء [1] ، كان له مكتبة تضم عشرة آلاف مجلد ومخطوط نفيس [2] .

يقول ابن الطقطقى [3] : اشتغل ابن العلقمي في صباه بالأدب ففاق فيه ، وكتب خطا مليحا ، وترسل ترسلا فصيحا ، وضبط ضبطا صحيحا ، وكان رجلا فاضلا لبيبا كريما وقورا محبا للرياسة ، كثير التجمل رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأدوات السياسة ، كان يحب أهل الأدب ويقرب أهل العلم .

ويذكر صاحب كتاب الفخري [4] ، عن ولده شرف الدين أبى القاسم على ابن العلقمى قال : اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وصنف الناس له الكتب ، فممن صنف له الصاغانى اللغوي صنف له " العباب في لغة العرب " وصنف لعز الدين عبد الحميد ابن ابى الحديد كتاب " شرح نهج البلاغة " ويشتمل على عشرين مجلدا فأثابهما ، وأحسن

---

[1] البداية والنهاية ٢٠٣/١٣ - ٢٠٥ - تاريخ الإسلام ١٦٢/٤ .

[2] عباس إقبال (انظر الترجمة) .

[3] الفخري ٣٣٧ .

[4] ابن الطقطقى ٣٣٧ - عباس إقبال (الترجمة العربية) .

جائزتهما ، وكان ممدوحاً مدحه الشعراء ، وممن مدحه كمال الدين البوقي قال :

مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الوزير

وهو بيت حسن جمع فيه بين لقبه وكنيته واسمه واسم ابيه وصنعته .

حملة هولاكو على الجزيرة والشام

لم تكن بغداد هي آخر ما يأمله هولاكو ، بل كانت مجرد خطوة لها ما بعدها ، فقد كان الهدف هو فتح الباب صوب الغرب وفتح مصر والشام ، وكانت الجزيرة -- شمال العراق وبها اربل والموصل وديار بكر وديار ربيعة ، لم تفتح بعد ، وكانت تابعة لحكام الأيوبيين ، وكان الأيوبيون يحكمون في ميافارقين والموصل وحصن كيفا والكرك وحلب وحمص .

وكان بدر الدين لؤلؤ – صاحب الموصل – قد أرسل ابنه ركن الدين إسماعيل بالهدايا والتحف وأعلن طاعته للمغول ، فتقبله هولاكو [1] ، وزوج هولاكو ابنة جلال الدين منكبرني – تركان خاتون – للملك الصالح ابن بدر الدين لؤلؤ [2] .

وكان هولاكو أثناء حصار بغداد ، قد أرسل عسكرا إلى أربل ، وحاصر الجيش اربل ستة أشهر ، ولم يوفق الجيش المرسل في فتحها [3] ، ولم يتم فتحها إلا بمساعدة بدر الدين لؤلؤ [4] .

---

[1] تاريخ ابن خلدون ١١٥١/٥ .

[2] عباس اقبال (الترجمة العربية) .

[3] تاريخ ابن خلدون ١١٥١/٥ .

[4] عباس اقبال (الترجمة العربية) .

ويذكر ابن خلدون [1] أن هولاكو لم يتم له الاستيلاء على الجزيرة وديـار بكر وديار ربيعة ، وانتهي إلى الفرات وتاخم الشام وملك البيرة سـنة ٦٥٨ هـ إلا أن عباس إقبال[2] ذكر أن هولاكو توجه إلى بحيرة وان (اخـلاط) ومعه بايجو وسونجاق صوب ديار بكر ، وارسل سونتاى نويان لمحـاصرة ميافارقين [3] والملك الصالح لفتح آمد (ديار بكر) واستولى بنفسه علـى الرها ونصيبين .

وقد ساعد الأرمن هولاكـو فـي فتحـه لميافـارقين ، ودارت مذبحـة للمسلمين، وتعرض حاكمها - الكـامل الأيوبـي - للتعذيـب والتنكيـل ، وأرغموه على الأكل من لحم جسده حتى مات [4].

واتجه هولاكو صوب حلب فحاصرها ، وقاومت حاميتها ، ولكن سـرعان ما سقطت بعد أن امتنعت عليهم فترة طويلة .

وفي سنة ٦٥٧ هـ أعلن أهالي دمشق الطاعة خوفا من أن يصيبهم مـا أصاب حلب ، وأرسل هولاكو كيتوبوقا للاستيلاء عليها كما أعلـن أهـالي حماة الطاعة ، وفتحت انطاكية ، ونال حاكمها المسيحي بوهمنـد رعايـة هولاكو ، واستمر كيتوبوقا في الزحف صوب فلسطين وفتح مدنها واحـدة تلو الأخرى واحتل نابلس وغزة ، ولكنه لم يتعرض للإمـارات الصليبيـة بسوء .

ومن الملاحظ خلال فتوحات هولاكو لمدن وبلاد الشام أنه لـم يتعـرض للمسيحيين قط ، بل كان يرعاهم ، وكان المسيحيون بدورهم يقدمـون لـه العون والمساعدة لفتح المدن الإسلامية .

---

[1] ابن خلدون ٥/١١٥١ .

[2] عباس اقبال (الترجمة العربية) .

[3] تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥١ .

[4] المظفر قطز ١٠٩ .

وبينما كان هولاكو مقيما في حلب ، وصله خبر وفاة منكو قاآن ، فحزن كثيرا وترك قائدة المفضل كيتوبوقا في نواحي الشام ، وعاد إلى قراقورم وقبل عودته واثناء وجوده في أخلاط أرسل في جمادى الآخرة سنة ٦٥٨ هـ رسولا إلى حكام مصر لقبول طاعته[1].

عين جالوت وانحسار المد المغولي

أرسل هولاكو رسالة إلى سلطان مصر جاء فيها : " من ملك الملوك شرقا وغربا القاآن الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ، نعلم أمير مصر قطز – الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذه الأرض ، بعد أن ابتاعوا إلى التجار بابخس الأثمان .. أما بعد ...

فإنا نعبد الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، يسلطنا على من يشاء من خلقه ، فسلموا إلينا الأمر تسلموا قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا وقد سمعتم أننا أخربنا البلاد وقتلنا العباد ، فلكم منا المهرب ولنا خلفكم الطلب ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، وأنتم معنا في الأقفاص ، خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق فقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ومن تأخر عنا سلم ... [2] .

وتابعت الرسالة تهيدها بقولها : " وقد حذرنا قبلكم أهل بغداد بمثل ذلك ، فما سمعوا ، فجرى عليهم ما سمعتم به ، وقتلنا خطيبهم – الذي يزعمون أنه الخليفة وضربنا بلادهم ، ونهبنا عددهم ، وهذا آخر كلامنا لكم والسلام علينا وعليكم وعلى من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى " وجاء في آخر الرسالة هذان البيتان :

---

[1] عباس إقبال (الترجمة العربية) .

[2] صبحي الأعشى في صنع الأنشا م٨ ٦٣ – ٦٤ – ابن كثير ٢١٥/١٣ بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ٣٠٥/١ – السلوك للمقريزي ١ ق ٢ ص ٤٢٧ – ٤٢٩ .

اين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت في يدنا الأمراء والخلفاء [1]

لم يكن هناك من قوة في العالم الإسلامي سوى قوة المماليك في مصر. ومع أن المماليك كانوا يعانون من كثير من المشاكل الداخلية إلا أنه تسهيأ لهم السلطان قدوز (قطز)[2] الذي جمع الأمراء وقال لهم : إن تأخرتم عن قتالهم ، ملكوا الديار المصرية ، وفعلوا بنا كما فعلوا في بغداد [3] ، وأجبر المماليك على قبول حرب المغول ،وقتل رسل هولاكو [4] .

استعد قدوز لقتال المغول ،وأراد تحييد الإمارات الصليبية في فلسطين ، واتفق معهم في عكا على أن يسمحوا له باجتياز أراضيهم وأن يقدموا له المساعدات اللازمة لتموين جيشه ، ورفضوا الدخول معه في حلف عسكري[5] .

كان هولاكو قد عاد إلى قراقورم – كما سبق أن ذكرت – بسبب وفاة الخان الأعظم منكوقاآن – آملا اختياره خانا أعظم على المغول وترك قيادة الجيش في الشام لقائده كيتوبوقا [6] .

اتجه قدوز صوب عين جالوت في ٢ سبتمبر ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وهناك أقام معسكره، وسار كيتوبوقا بجيش المغول وبصحبة كتائب من

---

[1] ابن اياس ١/ ٢٠٥ .

[2] الاسم الصحيح قدوز وليس قطز لأن حرف الطاء حرف عربي خالص ، وقدوز اسم لمملوك تركي ، ولا يوجد حرف الطاء إلا في كلمة عربية .

[3] السلوك ١ ق ص ٤٣٠ .

[4] تاريخ ابن خلدون ٥/١١٥٢ .

[5] المظفر قطز ١٢٠ .

[6] العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في عهد الدولة المملوكية الأولى د فايد حماد عاشور ٥٠ .

الأرمن والكرج ، وقام قتال مهيب في عين جالوت ، وأوقع قدوز جيش المغول - بحنكته العسكرية - في مأزق ، والتف حوله بجيشه ، وطوقه من جميع الجهات ، ولم ينج من الجيش المغولي إلا القليل ، وتحولت أرض المعركة إلى مجزرة ، وانتهت المعركة بأسر كيتوبوقا ، وقتله [1] .

وبعد معركة عين جالوت أرسل قدوز جيوشه بقيادة بيبرس البندقداري لملاحقة فلول المغول في الشام ، فحرر دمشق وحلب وحمص وحماه ، وتوقف المد المغولى صوب الغرب ، وتوقفت أطماعهم عند نهر الفرات ، ومع مرور الأيام بدأ المماليك في إقامة علاقات تجارية وسياسية مع المغول المسلمين بزعامة بركاى بن جوجى في صحراء القبجاق .

كان لمعركة عين جالوت وهزيمة المغول نتائج طيبة ، إذ توقف المد المغولي عند الحد ، وكسرت شوكة الجيش الذي لم يُهزم من قبل وقُتل قائدهم في الشام ، وصمم هولاكو على الانتقام ولكنه لم يوفق ومات قبل أن يتم وعيده .

لقد أدت معركة عين جالوت إلى تثبيت دعائم المماليك في مصر والشام ، وأضعفت أمل الصليبيين في التعاون مع المغول لضرب القوة الإسلامية [2] .

لقد قال الشاعر أبو شامة [3] :

غلب التتار على البلاد فجاءهم

من مصر تركي يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شملهم

ولكل شيء آفة من جنسه

---

[1] النجوم الزاهرة ٧٩/٧ - ابن كثير ٢٢٠/١٣ - السيوطى ٤٧٥ - ابن اياس ٣٠٦/١ - القلقشندى ١٠٥/٢ .

[2] العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ٥٦ .

[3] المختصر في أخبار البشر ٢٣٥/٣ .

هلاك هولاكو (٦٦٣ هـ)

بعد فشل هولاكو في الحصول على منصب الخان الأعظم ، أكتفي بما لديه من بلدان فتحها ، وكانت هذه البلدان تشمل خراسان وعراق العجم وعراق العرب وآذربيجان وخوزستان وفارس وبلاد بكر وبلاد الروم [1] .

وانشغل هولاكو في سنوات عمره الأخيرة بحروب مع آل بيته ، فقد احتدم الصراع بينه وبين بركاى خان (بركه خان) بن جوجى ، وكان الأخير قد اسلم وأسلم معه قومه في صحراء القبجاق ، ووقعت عدة معارك بينهما .

وبعد أن تولى قوبيلاى قاآن عرش المغول وصار خانا أعظم ، فوض حكم الممالك من شط جيحون إلى الشام ومصر لهولاكو ، وقسم هولاكو هذه الممالك على ابنائه ، فمنح ابنه الأكبر أبقاخان العراق وخراسان ومازندران، وأعطى ليشموت آران وآذربيجان ، ومنح تركان خاتون كرمان، وولى معين الدين پروانه على ممالك الروم ، وولى الأمير انكيانو فارس وولى أخه أمرائه على الجزيرة [2] .

وفي ربيع الأول سنة ٦٦٣ هـ ، تناول هولاكو شرابا سهلا ، فاعترته غشية على أثره أدت إلى حالة السكتة ، فمات في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، وهو في سن الثامنة والأربعين ودفن على جبل شاهو المواجه لدهخوارگان [3] .

---

[1] تاريخ ابن خلدون ١١٥٣/٥ .

[2] عباس إقبال .

[3] جامع التواريخ ٣٤١/٢ - تاريخ ابن خلدون (مات سنة ٦٦٢ هـ) ١١٤٠/٥ - عباس إقبال (الترجمة العربية) .

فتوحات هولاكوخان
(ترجمة عن كتاب " تاريخ المغول " عباس إقبال أشتيانى)

على الرغم من أن المغول كانوا قد استولوا على معظم الممالك الإسلامية ، واجبروا أهلها على قبول طاعتهم ، لم يزل المسلمون في القسم الغربي من آسيا غير مسيطر عليهم ، ولم يستطع المغول أن يسيطروا على المراكز الكائنة في هذه الناحية .

فمن ناحية كان للفداوية الاسماعيلية قلاع حصينة في قهستان وروديار آلموت ، والوديان الجنوبية لسلسلة البرز ، وكانت ملجأ لجماعة المجاهدين بالخناجر ، وهذه الجماعة كما يلاحظ في تاريخ السلاجقة والخوارزمشاهية أنهم كانت لهم قوة وقدرة طوال قرن ونصف في هذه النواحي ، ودائما ما كانوا يلحقون الأذى بمعارضيهم .

ومن ناحية أخرى كانت الخلافة العباسية في بغداد أسمية فقط ، ولم يكن للخليفة اعتبار أواقتدار ، ولكنه يعرف بماله من نفوذ ديني على المسلمين كرئيس وأمير للمؤمنين، وكان من الممكن أن يحرك بعض الأمراء الطائعين بإشارة أو أمر باسم الحفاظ على الخلافة والدفاع عن الإسلام .

بالإضافة إلى هذين الأمرين كانت مصر والشام تحت سيطرة السلاطين الأيوبيين ، ولم يكن للمغول مقدرة للاستيلاء على هذه النواحي، وسلاطين هذه النواحي كانوا في صراع مع المسيحيين الأوربيين والصليبين وكانوا يجاهدون الفرنجة .

وعلى الرغم من كل هذه المصائب التى أبتلى بها المسلمون منذ بداية هجوم المغول وما تجرعه الناس منهم كان النفاق مازال معبرا عن حال المسلمين .

كان الاسماعيلية من ناحية يعادون جميع المسلمين معاداة شديدة وكانوا يقتلون كل شخص ذى شوكة على يد فدائيهم ، وواجهت جميع الممالك الإسلامية في المشرق مصائب جمة ، ومن ناحية أخرى رأينا أمراء الأيوبين لم يتفقوا مع بعضهم البعض أو مع السلاطين السلجوقيين في آسيا الصغرى أو مع أمراء الجزيرة ، وكانوا في صراع دائم فيما بينهم حتى اضعفوا بعضهم البعض بل أن بعضهم سعى عند حكام وأمراء المغول ، وحرضوهم للاستيلاء على بقية الممالك الإسلامية .

هجم المغول - الذين عرفوا هذه الأوضاع والأحوال تماما - ليقضوا على الإسماعيلية وبني العباس ، ويستولوا على آخر الممالك الإسلامية في الجزء الغربي من آسيا ، والأشخاص الذين ساعدوا المغول لاتمام هذا الهدف ، كانوا من المسلمين - الذين نالوا رعاية المغول ، ليحمونهم من ظلم الملاحدة ، وكانوا يتملون القضاء على أس فسادهم بأى وسيلة ، وكانوا محرضين للمغول لغزو إيران مجددا ،واقتلاع الإسماعيلية ، والآخرون هم الأرمن الذين تمنوا بسبب الحقد الديني للمسلمين اتباع الخلافة العباسية - أن يستولى المغول على بغداد ، ويهزموا مسلمي مصر والشام الذين كانوا يجاهدون المسيحيين الصليبيين ، ويقتلعوا الإسلام ، وكانت رحلة ملك ارمنستان هتوم (حاتم) إلى بلاط منكوقاآن وعقد اتحاد معه للاعداد لهذا الأمر ، ووعده خان المغول ، وكان في تفكيره أن يرسل أخاه هولاكو لدفع الإسماعيلية وتأديب الخليفة العباسي وفتح مصر والشام وكان مقررا أن يرسل تحت امرتة جور ماغون وبايجو واميرارغون .

تحرك هولاكو -الذي كانت أمه سرقوى تى مسيحية وزوجته دوقوزخاتون ايضا تؤمن بالمسيحية - بجنود أكثرهم من المسيحين المغول، أى من أقوام الكرائيت والنايمان والأويغور في أواخر سنة ٦٥١ هـ .

كان المقر الرئيسى للإسماعيلية جبال ولاية الطالقان ورودبار الموت ، ويوجد في هذه النواحى قرابة خمسين قلعة حصينة كان قد استولى عليها الإسماعيلية ، وكانت أشهر قلاعهم الموت وميمون دُز ولبنه سر وتعبد آلموت بمثابة عاصمة ودارا لملك اسماعيلية إيران .

وكان للإسماعيلية أيضا قلاع حصينة غير رودبار آلموت في ولاية قومس (سمنان ودمغان الحالية) وقهستان ، وكان يدير هذه القلاع - التى تبلغ مائة وخمسين حاكم واحد يسمونه المحتشم ، ولم يكن لهؤلاء المحتشمين زوجات ، لأنهم كانوا طوال الوقت في دفاع وفرار ، ولم يكونوا مرتبطين بشيء أو بأحد .

ولم يكن يفصل رودبار آلموت - التى كانت المقر الرئيسي للإسماعيلية حتى مدينة قزوين أكثر من ستة فراسخ ، ولما كان أهل قزوين من السنة وكانوا متعصبين لمذهبهم ايضا ، لذا أخذ النزاع والجدال مكانه بين الإسماعيلية وأهالي قزوين وظلت حالة الحرب بينهم وبين فدائي الإسماعيلية .

يقول محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى مؤلف الكتاب الشهير الفخرى " حكى لى ملك أمام الدين يحيى بن افتخارى " عندما كنت في قزوين اخفيت ليلا جميع أموالي من أثاث وقماش ومتاع في سراديب كانت في المنزل ، ولم أدع شيئا مكشوفا على وجه الأرض خوفا من نهب الملاحدة ، وعندما أصبح الصباح اخرجتها ، وكررت نفس هذا العمل في الليلة التالية ، كان هذا هو حال أهالي قزوين حيث كانوا يحملون السكاكين والأسلحة معهم خوفا من نهب وإساءة الملاحدة حتى توجه قاضي قزوين شمس الدين إلى قاآن ، واستقدم جيوشه لتخريب قلاعهم (الفخرى) .

روى الثقاة (طبقات ناصرى ٤١١ - ٤١٤) ، أن جميع أهالي وسكان مدينة قزوين استعدوا بالسلاح وأدوات الحرب إلى درجة التجار كانوا يعدون السلاح في الدكان ، وكانت الحرب قائمة بين القزوينيين وملاحدة الموت يوميا ، إلى أن خرج جنكيزخان واستولى جيش المغول على العراق والجبال ، وسافر القاضي شمس الدين أحمد الكافى القزوينى - وكان اماما صديقا وعالما دقيقا - من قزوين إلى الخطا مع بعض الكرت وتحمل آلام مفارقة الأوطان ، وتوجه كرت آخرون في عهد حكم منكوخان إلى هناك ، وطلب منهم المساعدة ، وشرح لهم سر الملاحدة وفسادهم في بلاد الإسلام وعندما ذكروا في حضرة منكوخان صلابة المسلم ، ولما استولى الغضب والتكبر الملكي على منكوخان وتكبر سيطرته وسطوته بلفظ العجز والضعف، قال منكوخان للقاضي ما هى نقاط الضعف في مملكتنا حتى تجرى على لسانك مثل هذا القول ؟ قال القاضي شمس الدين : الضعف الشديد في أن جماعة الملاحدة قد لاذوا بعدة قلاع ، ودين هؤلاء القوم مخالف لدين المسيحيين والمسلمين والمغول ، يغترون بمالهم ، ومن المنتظر متى ما أصاب الفتور دولتك ، يخرج هؤلاء من الجبال وتلك القلاع، ويقضون على البقية المتبقية من المسلمين ولا يدعون أثراً لمسلم ، وكان هذا باعث لمنكوخان لقمع قلاع الملاحدة وقهستان والموت .

بالاضافة إلى هذا الأمر ، كان الإسماعيلية قد دخلوا في طاعة المغول في عهد جنكيزخان ، وقبل جلال الدين حسن قائدهم فرمان جنكنيز من قبل كل أمير من أمراء إيران ، وفي عهد جلال الدين منكبرنى سلكوا طريقا معوجا وانحرفوا عن طريق الطاعة ، وقتلوا أحد قادتهم في إحدى الحملات التى قادها المغول على قلاعهم .

وعلى الرغم من هجوم وغزوات جرماغون وبايجو على حدود العـــراق وتوجههم عدة مرات لمحاربة جيوش خليفة بغداد ، وفشـــل المغـــول فـــي تسخير دار الخلافة أو على الأقل عدم إدخال الخليفة فـــي طاعتـــهم ، بـــل وهزيمتهم ايضا ، ووقع هذا الأمر وقع الصاعقة على خان المغـــول وقـــواد جيشه ولهذا شكا بايجو لمنكوقاآن من الخليفة المستعصم بالله ، وطلب منـــه العون لدفعه .

وبناء على ما سبق صمم منكوقاآن أن يسير جيشا جـرارا إلـــى إيـــران ليصد الملاحدة الإسماعيليين من ناحية ، ويقضى على خليفـــة بغـــداد مـــن ناحية أخرى ، ويفتح الطريق للاستيلاء على ممالك الشام ومصر وبعـــد أن تشاور منكوقاآن مع قواد المغول عين اخاه الأصغر هولاكو - الذى لم يكـــن قد تجاوز السادسة والثلاثين من عمره - لهذا الأمر الهام، وأمره أن يتوجه جنوب إيران بمائتي وعشرين ألف جندي من خيرة الجيش الجنكيزى وجمع من أمراء التاتار الكبار ، ويسخر البلاد من شط جيحون حتى أقصى البـــلاد للمغول ، وخرج هولاكو في ربيـــع الأول ســـنة ٦٥١ هــــ مـــن معسكر منكوقاآن صوب جيحون ، وحمل معه جماعة من مهرة الختا الملقين لكرات النفط مع مقدار من العرادات الحربية والمنجنيقات ، ولما لم يكن سريعا فـــي تحركه ، فقد أرسل كيتوبوقا - أحد الأمراء المسيحيين بمعسكره - مع أثنى عشر ألف جندى طليعة له ناحية قهستان وروذبار ، ووصل بنفسه في ســـنة ٦٥٣ هـــ إلى مدينة سمرقند .

وصل كيتوبوقا إلى قهستان في السنة التالية ، واهتم بالسلب والنهب في تلك النواحي وتخريب قلاع الإسماعيلية ، وفتح بعض هذه القلاع ، وتوجـــه بخمسة آلاف فارس وخمسة آلاف من المشاة ناحيـــة دامغـــان ، وحـــاصر إحدى القلاع الحصينة للإسماعيلية أى كرذكوه أو دزكنبدان التـــى يفصلـــها

عن دامغان ثلاثة فراسخ ، وأمرأن يحفروا خندقا حولها، واقتحمها جماعة من جنود التاتار ، وأسرع بنفسه لتسخير قلاع رودبار وطارم.

اغار المحصورون في قلعة كردكوه على المغول ليلاً ، وقتلوا قرابة مائة جندي منهم، وقوى أمرهم بمساعدات وصلت إليهم من إمامهم علاء الدين محمد خليفة جلال الدين حسن ، واضطروا لتقديم الخراج بسبب هجمات المغول الشديدة ،واستولى جنود كتيوبوقا على قلاع كثيرة من قلاع الإسماعيلية ، ولكن لم يوفقوا في فتح كردكوه .

كان أمر وملك الاسماعيلية - في هذا الوقت بيد خداوند علاء الدين محمد (٦١٨ - ٦٥٣ هـ) الذي لم يكن كفؤا ، وكان يقضى أكثر اوقاته في الفسق والسكر ، ووافق ابنه ركن الدين خورشاه - الذي لم يرض كثيرا عن أفعال ابيه الوضيعة - على قتله ، وعندما قتل أحد الحجاب علاء الدين وهو في حالة سكر ، جلس ركن الدين مكان ابيه ، وصار سنة ٦٥٣ هـ القائد العام لملاحدة إيران والشام .

كان ناصر الدين عبد الرحمن بن أبي منصور محتشما لقهستان في ذلك الوقت ، وكان رجلا فاضلا وكريما وفلسفي المذهب وكان مهتما بترجمة كتب الحكمة من العربية للفارسية ، وقد جلب كثيرا منها إلى بلاطه .

وصل هولاكو ومرافقوه إلى بلاد ما وراء النهر حين كان كيتوبوقا مشغولا بتسخير قلاع رودبار وقهستان ، وعسكر هولاكو خارج سمرقند ، واستقبله الأمير مسعود بيك في هذا المكان ، وبعد أربعين يوما انتقل معسكره إلى مدينة كش ، ووصل إليه في هذه المدينة الأمير ارغون حاكم إيران الشرقية وملك شمس الدين كرت ملك هرات وفيروز كوه وغرجستان لتقديم الطاعة ، واستقر في كنفه .

عبر هولاكو جيحون أواخر سنة ٦٤٣ هـ ، ووصل خراسان عن طريق بلخ وخاف ، وقدم الأمير أرغون عماله وكتابه لهولاكو حتى يكونا في خدمته ، وينفذون أمره ، وكان من بين هؤلاء الكُتاب عطا ملك جويني ابن بهاء الدين مسئول الديوان .

وعندما وصل هولاكو طوس أرسل ملك شمس الدين كرت برسالة إلى ناصر الدين محتشم قهستان ، ودعاه لقبول فرمانه ، وتوجه ناصر الدين - الذى كان في ذلك الحين شيخا ضعيفا - برفقة ملك شمس الدين إلى حضرة هولاكو ، واستسلم ، فقدم له هولاكو الاحترام ايضا ، وأرسله على حكومة مدينة تون ، وقد ألف خواجه نصير الدين الطوسى كتابه المعروف لخلاق ناصري باسمه .

الاستيلاء على آلموت وانقراض الاسماعيلية ٦٥٤ هـ

وصل كيتوبوقا إلى طوس لخدمة هولاكو ، وعرض أحوال الاسماعيلية وركن الدين خورشاه ، وصمم هولاكو على أن يستولي بنفسه على بقية أوكار الفداوية ، وأن يطوى بساط هذه الجماعة بولاء خورشاه ، وتوجه إلى خرقان وبسطام بهذه العزيمة ، وأرسل ين بسطام رسولين إلى خورشاه ، يدعوانه للتسليم ، ويرهبانه بهيبته وسطوته ، وقبل خورشاه الولاء بناء على مشورة خواجه نسير الدين الطوسى - الذي كان في ميمون دز ، وأرسل اخاه مع رسول إلى هولاكو ، وأكرم هولاكو وفادة رسل الاسماعيلية ، وأرسل رسالة إلى خورشاه من أنه عليه أن يحضر ويستسلم ويخرب قلاعه ويسرع بنفسه لطاعة هولاكو ، فأمر خورشاه أن يخربوا جزءاً من جدران قلاع لنبه سر وميمون دزْ والموت ، وطلب ان يمهله عاما حتى يحضر ، ولما كان هولاكو يعلم أن خورشاه يسلك طريق الخداع والنفاق ولا يريد تسليما ، لذا توجه بنفسه من طريق بسطام وكتيوبوقا من

طريق خوار وسمنان ، وتوجه آخرون من جنوده مـــن ناحيـــة مـــازندران صوب قلاع الملاحدة الاساسية ، فاستولى من ناحيـــة علـــى لاروندمـــاوند ، ودخل من ناحية أخرى ولاية رودبار الجبلية ، وأقترب مـــن ميمـــون دزْ ، واستولى هولاكو في أواخر رمضان سنة ٦٥٤ هـ على المعابر الحصينـــة بين رودبار وطالقان ، وحاصر قلعة ميمون دژ التى كانت تبعد ستة فراسخ، وادرك بسرعة أن الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة ليـــس ســـهلا نظـــراً لقرب الشتاء ، ولا يمكن اعداد الامدادات بسهولة ، فدعا خورشاه لطاعتـــه ثانية ، وعندما رأى خورشاه أنه لا طاقة له للمقاومة كما أن المحصوريـــن في ميمون دزْ لا يمكنهم الصمود لذا أوفد ابنه واخاه مـــع خواجـــه نصـــير الدين الطوسى وأولاد رئيس الدولة الهمدانى الطيب وموفـــق الدولـــة إلـــى هولاكو ، ونزل بنفسه ايضا في أول ذى القعدة سنة ٦٥٤ هـ من القلعـــة ، وقبل الأرض بين يدى هولاكو ، وانتهت مرحلة سيطرة الاســـماعيلية علـــى هذا النحو بعد أن استمرت ١٧٧ سنة [1] .

عامل هولاكو خورشاه معاملة حسنة وأمر رجاله بـــان يخربـــوا قلعـــة ميمون دزْ وقرابة مائة قلعة أخرى للاسماعيلية كانت في هذه النواحى وفـــي قهستان ، ولم يجدوا مقاومة قط من هذه القلاع إلا في ثلاثة فقط هم كـــردوه ولنبه سر والموت وفي النهاية سلمت قلعة كردكوه بعد عشـــرين يومـــا ، وثبتت لنبه سر سنة كاملة ، ولكن عندما ظهر الوباء بين سكانها لم يستطع حراسها المقاومة ، وقبلوا الولاء واضطروا لفتح أبواب القلعة .

ونهب هولاكو القلاع الرئيسية للاسماعيلية التى كـــانت مركـــزا لتجمـــع ذخائرهم ونفائسهم ، وقسم خزائنهم وأدواتهم وآلاتهم الثمينة بين جيوشـــه،

---

(1) قال خواجه نصير الدين الطوسي في تاريخ هذه الحادثة : لما كان يوم السبت أول ذي القعدة من سنة ٦٥٤ هـ نزل خورشاه ملك الاسماعيلية عن عرشه ، ووقف أمام عرش هولاكو .

وطلب من خورشاه ان يأمر حاكم الموت الملقب بسيهسالار بالاستسلام ، ففعل خورشاه ولكن سيهسالار رفض قبول أمره ، فأمر هولاكو جيشه بفتحها ،واستولى على الموت – مثلها مثل القلاع الاسماعيلية الأخرى – بعد قتال ثلاثة أيام ، وتعد آخر معقل هام للفداوية وكانت مركز دولتهم ووكرهم الرئيسى ، وسقطت القلعة في قبضة المغول .

ودخل المغول المقر الرئيسي لحسن الصباح وخلفائه ، وحطموا أدوات الحرب بالمنجنيق ، ونهبوا أموالهم وخزائنهم ، وأستولوا خاصة على مكتبة قيمة جدا كان الاسماعيلية قد اسسوها خلال سنوات استعلائهم في الموت ، وطبقت شهرتها الآفاق ، واصدر هولاكو امراً باتلافها ، وأستأذن عطا ملك جوينى – الذي كان مرافقا له في هذه المرحلة – بمطالعة هذه الكتب حتى يفصل الكتب النفيسة والمفيدة ، ويحرق الباقية التى تتعلق بأصول وفروع المذهب الاسماعيلى ،ولهذا الهدف النبيل استخرج من مكتبة الاسماعيلية المصاحف والكتب النفيسة وآلات النجوم والرصد الاسماعيلية، وأتلف الباقى، ومن جملة النفائس كتاب مؤلف عن الاسماعيلية وأحوال الحسن الصباح وخلفائه باسم " سركذشت سيدنا" ، الذى حماه عطاملك من التلف وضمن خلاصته في المجلد الثالث لجهانكشاى جوينى ،وايضا يوجد فصل أكثر تفصيلا في جامع التواريخ رشيدى .

بقى ركن الدين خورشاه بعد عدة أيام في معسكر هولاكو ، ورفعه إلى درجة أمير من أمراء الأسر المغولية ، وسيّره إلى منكوقاآن ، ولكن منكوقاآن رفضه ، ولما كان أهالي كَردكوه لم يستسلموا استسلاما كاملا بعد، اعادوه حتى تدخل هذه القلعة تماما تحت سيطرة هولاكو ، ويطيعوا أمره ، لذا عاد خورشاه إلى إيران ، وعلى شاطىء جيحون قُتل بيد مرافقيه المغول سنة ٦٥٥ هـ .

قتل هولاكو ولدين من أولاد خورشاه واخوته واخواته واهله بين ابــــهر وقزوين وأمر أن يقتلوا أى شخص يجدوه فـــي أى مكـــان ،وجمـــع حكـــام المغول في خراسان اسماعيلية قهستان لأسباب عديدة ، وقُتـــل فـــي مـــرة واحدة أكثر من أثنى عشر ألف شخص منهم ، ولكن على الرغم مـــن كـــل هذه الأمور كان الفداوية الاسماعيلية مازلوا في عدة أمـــاكن مختلفـــة فـــي إيران والشام ، وفي عهد ابقا بن هولاكو وخلفائه الآخرين ، جرد الجيـــش عدة مرات لذلك ما تبقى منهم واستولى المغول مؤخرا سنة ٦٥٨ هـــ علـــى إحدى قلاعهم الحصينة في الشام ، وخرب المصريون أوكارهم الهامة ســـنة ٦٧١ هـــ في نواحي الشام ولبنان ، وأخمدوا فتنة الملاحدة .

فتح بغداد وانقراض الخلافة العباسية
٦٥٥ - ٦٥٦ هـ

خلافة المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ)

تولى أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله الخلافة العباسية ـ سنة ٦٤٠ هـ وكان الخليفة الثامن والثلاثون والأخير من بنى العباس ، كان رجلاً متدنيا خيرًا هادئ الطبع عفيفا عليماً بأمور السياسة والملك ، جاهلا بحقائقها ، ولم يكن أحد قط يخشاه ، قضى أغلب ايامه في سماع الأغاني ومخالطة الهزل من النساء والرجال ، وأفنى وقته دون استفادة حقيقية من مكتبته الخاصة ، وبينما كان المغول على بوابة بغداد كان يكتب الرسائل إلى سلاطين النواحى ويطلب منهم المطربين والملحنين بدلاً من تدبير شئونهم، وقلد السفلة أهم أمور بلاطه وديوانه ، وكان أهل بلاطه جميعا من أحط الناس ، سيطروا على الخليفة تماماً وكان بقية القوم من الاخساء والوشاة باستثناء مؤيد الدين محمد بن العلقمى وزيره ، وجروا الخليفة الضعيف إلى كل ناحية يميلون لها وضمنوا أسباب ضعف الأحوال .

كان من عادة خلفاء بنى العباس المتأخرين وحتى عهد المستنصر أنهم كانوا يحبسون أبناءهم على سبيل الاحتياط ، ولم يراع المستعصم هذه العادة ، وأطلق سراح أولاده الثلاثة ، واستفاد ابنه الأكبر كما سنوضح فيما بعد من ضعف أبيه ، فارتكب في بغداد الجرائم والمصائب التى ساعدت أيضا على إسقاط بنى العباس .

مرت ست عشرة سنة من بداية خلافة المستعصم حتى وصول هولاكو إلى نواحي بغداد ، وعلي الرغم من أن خبر وصول عساكر المغول كانت تصله كل يوم لم يكن الخليفة الجاهل يهمل معاشرة النساء بأى حال قط ، وكان رجال البلاط الوشاة بدلا من أن يذكروه بأحوال مسلمي خوارزم

وإيران والروم كان يبينون في حضرة الخليفة أنها لا أساس لها وغير ذى أهمية ولم يكن الخليفة في هذا الصدد مشغول بجمع الجيوش وطلب المساعدة من ملوك الأطراف لمواجهة هولاكو ، أو على الأقل إرسال التحف والهدايا ليمنع تقدم المغول وعواقبهم الوخيمة ، وكلما تحدثوا معه حول تقدم المغول إلى العراق ، كان يقول يكفيني بغداد ، فطالما اترك لهم البلاد الأخرى فانهم لن يحاصروا هذه المدينة فهي مقري ومقامي .

جاء المغول عدة مرات في عهد خلافة المستعصم إلى جانب العراق ، ولكنهم لم يوفقوا في الاستيلاء على بغداد حتى أوائل سنة ٦٥٦ هـ ، وكانت أول موقعة وقعت في عصر هذه الخليفة بجوار بغداد في أوائل سنة ٦٤٣ هـ ، وفي هذا الوقت كان لسليمان بن برجم زعيم التركمان الايوانيين في بغداد نفوذ كامل ، وعندما تمرد واحد من زعماء الأكراد واسمه خليل بن بدر على الخليفة توجه إلى الجبال ، واسرع سليما نشاه لتأديبه ، وقتل خليل وسقط اخو خليل وجماعة من الأكراد أسرى في يد المغول فارسلوهم إلى بغداد[1] .

أمر الخليفة بأن تخرج عساكر بغداد على سبيل الاحتياط خارج دار الخلافة للمواجهة، وان يأخذوا المعارضين أمامهم في المقدمة ، وباغت المغول أيضا أطراف بغداد على أساس أن عدد عساكر الخليفة قليلون وأرسل الخليفة أحد قواده وهو شرف الدين اقبال الشرابى لمواجهتهم .

وصل المغول في ربيع الآخر سنة ٦٤٣ هـ ضواحى بغداد وسعى جيش الخليفة بقيادة شرف الدين اقبال الشرابى ومساعدة وتأييد مؤيد الدين محمد بن أحمد بن العلقمى وزير المستعصم في مقاتلة المغول ولما لم يجد في أنفسهم مقدرة للمقاومة فر ليلا ، وحفظت بغداد في ذلك الحين من شر استيلائهم .

كان زمام الأمور في البلاد وجيش الخليفة في ذلك الحين بيد الأشـــخاص الآتي أسماؤهم : الوزير مويد بن العلقمي ، شرف الدين اقبال الشرابى مـــن قواد جيش سليمان شاه التركماني زعيم طائفة ايواني ، مجاهد الدين ايبــك دواتدار الصغير وعلاء الدين آلتون برسى دواتدار الكبير .

كان عساكر الخليفة في تلك الأيام قرابة ستين ألف جندى كـــان القســم الأكبر منهم تحت إمرة سليمابرسى شاه ، وكانت أمور الخلافة في يد عـــلاء الدين دواتدار الكبير ومجاهد الدين دواتدار الصغير وإقبال الشـــرابى وابــن العلقمي الوزير ، ولكن هؤلاء الأمراء والوزراء لم يكن لديهم اخلاص قـــط للخليفة ، وكانوا يقتلون أى فكرة يفكر فيها ، وبالإضافة إلـــى ذلـــك كـــانوا يعادون بعضهم البعض أيضا ، وكان كل منهم مصمم على ضرب الآخـــر ، وكان مجاهد الدين دواتدار الصغير أكثر هؤلاء القوم ثقـــة عنـــد الخليفـــة الساذج ، وكان دواتدار الصغير قد جمع حوله جماعة من الرنود والأوبـــاش وصمم على خلع الخليفة، واجلاس آخر من بنى العباس محله ، ونبه ابـــن العلقمي الخليفة ولكن الخليفة الساذج بدلا من أن يدفع اعداءه ، نصحـــه وعفا عنه ، ووشى دواتدار الصغير للخليفة عن ابن العلقمي ، وأخبره بـــان لديه علاقة مع هولاكو ولما فرغ ذهن دواتدار منه وزاد جمعه يومـــا بعـــد يوم، فكر الخليفة في دفعه ، وظهرت الفتنة في بغداد .

كان أهالي بغداد من الشيعة والسنة والمسيحيين دائما في خلاف مذهبـــي وديني دائم فيما بينهم ، وظهر بينهم أيضـــا اختـــلاف فـــي أمـــور الملـــك والسياسة ووقع النزاع الداخلي بين الأهالي بسبب هذه الاختلافات ، خاصـــة وأن أولياء الأمور أيضا لم يكونوا في وئام مما ساعد علـــى اشـــتعال نـــار العداء وكان الخليفة من فرط سذاجته ينظر بعين الخير ، وكان يحمـــل كـــل فعل يفعله وزراءه وعماله على فعل الخير وحب البلاد .

بعد فتنة دواتدار الصغير ضد الخليفة والتى أخمدها بمساعدة صاحب ديوانه وكتب بخطه مكتوبا لدواتدار أمنه فيه وقال فيه أن كل ما عرض علينا في حقك افتراء ، ودعاه لخدمته وخلع عليه واستماله .

ولما كان بين دواتدار ووزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمى كما ذكرنا من قبل عداوة، لذا سعي كل واحد منهما عند الخليفة ضد الآخر وقامت في أواخر عهد المستعصم يعنى سنة ٦٥٠ هـ في بغداد حرب بين الشيعة والسنة ، وعين الخليفة ابنه الكبير أبا بكر لدفع الفتنة ، فاغار أبو بكر على مساكن الشيعة في محلة الكرخ في بغداد ومشهد الإمام موسى بن جعفر ، وارتكب جرائم فظيعة ، وغلا في القتل والسلب والفحشاء .

وقد نفر هذا العمل جميع الشيعة في بغداد من الخليفة وبنى العباسي ، واستاء مؤيد الدين بن العلقمى أيضا وكان شيعيا من هذه الحادثة .

وبينما كان الوضع هكذا في بغداد جاء هولاكو من العراق بجيش جرار إلى همدان ، وصحب معه في هذه الرحلة بدر الدين لؤلؤ (٦١٦ – ٦٥٧ هـ) صاحب الموصل والاتابك أبا بكر بن سعد اتابك فارس وخواجه نصير الدين الطوسي وعطاملك جوينى وولدي رئيس الدولة طبيب الهمذانى أيضا .

أقام خان المغول قرابة عشرة أشهر في همدان ونواحى كرمانشاه واستدعى بايجو وأرسله مرة أخرى إلى بلاد الروم ،واهتم بنفسه بإعداد الجيش ، وتردد الرسل بين هولاكو في همدان وبين الخليفة عدة مرات ، في نفس الوقت كان العداء الأخير بين ابن العلقمى ومجاهد الدين دواتدار الصغير قد وصل إلى الذروة ، والخليفة الساذج لم يهمل في إرسال التحف والهدايا وقبول فرمان المغول ليسد طريق وصولهم إلى بغداد ، ويمنع

سقوط آخر مركز علمي وأدبي في المشرق الإسلامي فـي قبضـة هـؤلاء الأوغاد .

أرسل هولاكو في العاشر من رمضان سنة ٦٥٥ هـ من همدان رسولا إلى الخليفة ، يطلب منه الطاعة ، ويستدعيه للقدوم بنفسه لتقديم الـولاء ، وإذا لم يتسير هذا يرسل سليمان شاه وابن العلقمـي وداوتـدار الصغير لتوصيل الرسائل لهولاكو . فأرسل الخليفة شخصين كان من بينهما شـرف الدين عبد الله بن الجوزى الذي توجه إلى همـدان وخـاف فتوجـه إلـى خراسان ، فغضب هولاكو من فعلة الخليفة الساذجة هذه ، ولما كان أهـالي بغداد يسيئون معاملة رسله ، كان يرد رسل الخليفة وينصحه بقبول فرمـان المغول .

وبعد عودة رسل الخليفة رأى بن العلقمي أن المصلحة تستدعى إرسـال التحف والهدايا الكثيرة من بغداد لهولاكو ، وأن تجـرى الخطبـة والسـكة باسمه لعله يدفع هذه الكارثة بأى وسيلة ويصـرف نظـر هولاكـو عـن الاستيلاء على بغداد ، وقبل الخليفة رأية ، واستعد لتقديم الـهدايا ، ولكـن عارضه مجاهد الدين دواتدار وجنوده في هذا الأمر ، وقـال للخليفـة ، إن ابن العلقمي يريد أن يقدمك لهولاكو بسهولة ، وهدفه من هـذا أن يحمـى جيشه من العسرة والمحنة ، وامتنع الخليفة عن إعداد الـهدايا وإرسـالها بسبب تهديدهم ، وجهز الجيش لإصرار سليمان شاه ولكن عندمـا رفـض أعطاءهم المال ، لم يتمكن من استعراض الجيش ، وفـي النهايـة اضطـر الخليفة ارسال الهدايا إلى هولاكو وأرسل له رسالة شارحا فيها سوء عاقبة من ثاروا على بنى العباس وسوء خاتمة يعقوب بن الليث الصفار وأخـوه عمرو والسلطان محمد السلجوقى وسمل عينى السلطان محمد خوازرمشـاه، وكان في تصوره أن هذه الأكاذيب سترعب هولاكو ، ويعود مـن منتصـف

الطريق ، ليقضى الخليفة وقته فارغ البال مستمتعا بسماع حلـــو الأغـــانى ومطالعة الكتب ومخالطة النساء وأهل الهزل ، في الوقت الذي زادت هـــذه الرسائل الطفولية من غيظ وغضب هولاكو أكثر عكس مـــا أراد الخليفـــة ، وصمم على التوجه إلى بغداد أكثر من ذى قبل .

فتح بغداد :

وأثناء تحرك هولاكو صوب بغداد تعاونت معه قبائل وأمـــراء النواحـــي الجبلية العراقية باعطائه المال أو تسليم حكوماتهم له ، وأدخل أغلب الأكراد التابعين لسيما نشاه تحت إمرته ، ثم أمر جيوش جرماغون وبايجو بـــالتقدم من بلاد الروم إلى أربل والموصل فحاصرا بغداد من جهة الغرب وانتظـــرا حتى يصل جيش هولاكو من جهة الشرق .

وجه هولاكو عدة أمراء مغول برفقة سونجاق توبـــان (أو ســـوغنجاق نويان) عن طريق كردستان الحالية وكيتوبوقا وعدد من القـــواد الآخريـــن من طريق لرستان وخوزستان صوب بغداد ، وتوجه بنفسه في أوائـــل ذي الحجة سنة ٦٥٥ هـــ من طريق كرمانشاه وحلوان ، وكان برفقته في هـــذه الرحلة الأمير ارغون وخواجه نصير الدين الطوسى وسيف الديـــن بيكجـــى الوزير وعلاء الدين عطاملك جوينى .

أرسل هولاكو مرة أخرى من أسدآباد همدان إلى المســـتعصم رســـالة ، واستدعاه ، فأرسل الخليفة شرف الدين بن الجوزى إليـــه وكـــرر الوعـــد والوعيد مرة أخرى ، وطلب من هولاكو أن يرجع ويفرق جيشه ، وســـوف يرسل له الخليفة المال المقرر سنويا ، ولم يهتم هولاكو بهذا الأمـــر الـــذى يبدو منه النفاق ،وعبر من كرمانشاه ودخل العراق .

في تلك الحين كان سونجاق وبايجو قد وصلا إلى حدود بغداد ايضا ، وعبرا دجلة بعد أن هزما طليعة جيش الخليفة ، وفتح كتيوبوقا ايضا لرستان ، ودخل العراق من الجنوب .

كان جزء من جيش الخليفة بقيادة مجاهد الدين أيبك دواتدار الصغير يعسكر في بعقوبا، وعندما سمعوا أن جيش سونجاق وبايجو قد عبرا دجلة ووصلا إلى الجزء الغربي لبغداد ، تقهقر إلى حدود الأنبار على مسافة تسعة فراسخ من دار الخلافة ، واشتبك مع جنود سونجاق ، وهزموهم . ولكن هُزم هزيمة ساحقة في محاربة جنود بايجو ، وقُتل منهم أثنى عشر ألف جندي ، وفر مجاهد الدين دواتدار مع قليل من مرافقيه ، وجاء بغداد، وحاصر بايجو وسونجاق المدينة من الجانب الغربي في الثلاثاء ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، وحاصرها كيتوبوقا ايضا من الجانب الآخر ، ونزل هولاكو في الحادى عشر من المحرم بالجانب الشرقي في عاصمة العباسيين، وحاصرها من هذه الناحية ، وأخذ المغول في دك أطراف بغداد بالحجارة والنفط والنار ولما لم يبق حول بغداد أحجار حملوا الأحجار من جبال حمرين وجلولاء أو اقتلعوا النخيل من جذوره واندفعوا بالعرادات داخل المدينة .

بدأ حصار بغداد من الثلاثاء ٢٢ المحرم ٦٥٦ هـ ، وأمتد حتى آخر هذا الشهر ، وخلال هذه الفترة كان المغول يخربون المدينة بالتدريج ، واقتحموا ابراجها وتقدموا ، وعندما رأى الخليفة أن الأمر يفلت من يده ، أرسل مرة أخرى رسولا وتحفا ليلتقي هولاكو، ولكن في هذا المكان لم يقبل دعوة الخليفة الساذج وأرسل خواجة نصير الدين لاحضار سليمانشاه ، ودواتدار أمام المستعصم فاضطر الخليفة إرسالهما إلى هولاكو ؛ فأعادهما هولاكو إلى بغداد ليخرجا مع تابعيهم حتى يتوجه هذا الجمع إلى مصر

والشام ، وخرج جنود بغداد وجمع غفير من أهالي المدينة برفقة دواتـــدار وسليمان شاه من بغداد بأمل النجاة ، وجاءوا إلى هولاكو ، فقتلهم الخـــان المغولي السفاك جميعا ، وبعد عدة أيام قتل دواتدار وسليمان شـــاه وابنــه ايضا وأرسل رؤوسهم إلى الموصل مع ابن بدر الدين لؤلؤ، ولم يذرف بــدر الدين دمعة - على الرغم من أنه كان صديقا لسليمان شاه - علــى هــؤلاء الثلاثة خوفا من هولاكو .

في يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٥٦ هـ خرج المســـتعصم وأولاده الثلاثة وثلاثة آلاف وأئمة وقضاة وأكابر واعيان بغداد من المدينة ، ووصلوا إلى هولاكو ، فحادثه هولاكو بلطف في الظاهر ، وأمر الخليفة أن يمتنع من تبقى من السيف من الأهالي من استعمال الأسلحة ومحاربة التاتار ، ولمـــا فعل الخليفة وتوقف الأهالي عن الحرب ، جمعهم هولاكو بحجـــة الحصـــر خارج بغداد وقتلهم جميعا وأمر في الرابع من صفر ان يغيروا على بغـــداد ودخل بغداد في التاسع من صفر ، وسلمه المستعصم بيده مفتـــاح خزائـــن خمسمائة سنة ، وأظهر له دفائنه .

* عندما وصل الخليفة عند هولاكو ، احضـــروا خواصـــه مـــن الأئمـــة والسادات والمشايخ على بوابة كلواذا ، وبعد ذلك أمر بنهب المدينة ، وذهب السلطان (هولاكو) لمشاهدة قصر الخليفة ، وشاهد كل شــيء واحضـــروا الخليفة ، فأمر الخليفة أن يقدم الهدايا التي احضرها للســـلطان والخـــواص والأمراء والجنود والحاضرين ، ووضع طبقا من ذهب أمام الخليفة ليـــأكل ، قال : لا أستطيع الأكل ، فقال له لماذا لم تحافظ عليـــه وتعطـــي للجنـــود؟ ولماذا لم تصنع هذه الأبواب من الحديد؟ ولماذا لـــم تـــأت إلـــى شـــاطئ جيحون كي لا تمكنني من عبور النهر؟ قال الخليفة : ما قدره الله كان ، قال السلطان : وما سيجرى عليك هو تقدير الله ، وتركـــه الليلـــة ، وخرجـــت

النساء بناء على أمره للخليفة والتحق به وبأولاده ، وتوجهوا إلى قصر الخليفة ، كانوا سبعمائة امرأة وألف ومائتين خادما ، وفرق الآخرين ، وعندما انتهوا من السلب بعد أسبوع ، أعطى أمانا لأهل المدينة ، وجمع الغنائم ، وفي الرابع عشر من صفر رحل السلطان من على باب المدينة ، واستدعي الخليفة ، فأحضروه، واحضروا بعده ابنه الأوسط مع خمسة أو ستة من الخدم في هذا اليوم في تلك القرية ووصل أمره إلى نهايته وفي اليوم التالي وصل أمر ابنه الأكبر ومن كانوا معه إلى بوابة كلواذ – إلى نهاية أمرهم ، ووزعوا النساء والخدم " (نقلا عن الرسالة الصغرى لفتح بغداد المنسوبة لخواجة نصير الدين الطوسي) .

خُرب في هجوم المغول على بغداد أكثر ابنيتها وعماراتها مثل مقابر الخلفاء ومشهد الإمام موسى الكاظم ، وقتلوا خلقا كثيرين ، وفي النهاية وبعد أسبوع أمر هولاكو ان يرفعوا يدهم عن القتل والسلب في المدينة ، ولما كان الهواء فاسدا ، خرج في ٢٤ صفر من بغداد ، وطلب المستعصم ، وقتله في نفس اليوم مع ابنه الأكبر أبي بكر ، وقتل ابنه الأوسط أيضا بعد عدة أيام ، وقتلوا كل من وجدوه من بنى العباس ما عدا الإبن الأصغر مباركشاه الذي وهبه هولاكو لزوجته ، وسلمته زوجة هولاكو لخواجه نصير الدين الطوسي وزوجوه سيده مغولية ، وبهذا سقطت دولة بني العباس التى استمرت خمسمائة وخمس وعشرين سنة وانتهى تماما جهاز الخلافة ، وقد بلغ عدد القتلى في بغداد قرابة ثمانمائة ألف شخص .

وبعد قتل الخليفة ، أرسل هولاكو ابن العلقمي وزيرا لبغداد ، وعين شحنة مغولي ، وانشغلا في تعمير المدينة وترميم الأطلال وتكفين ودفن القتلى ، وعاد هولاكو بعد قليل إلى خانقين ، واستولى قواده على الحلة والكوفة والنجف ، وعندما قاوم أهالي واسط قتلوا منهم قرابة أربعين ألف

شخص ، واستولوا عليها ،وانقلبوا صوب شوشتر وبلاد خوزستان الأخرى ٠

الوزير ابن العلقمى (المتوفى - ٦٥٦ هـ) :

كما رأينا أن وزارة الخليفة المستعصم بالله كانت لمؤيد الدين أبى طالب محمد بن أحمد العلقمى ، وظل هذا الشخص وزيراً للخليفة حتى فتح بغداد ، ويعد من أجل فضلاء عصره، وكان مشهوراً بحسن الخط والكمال ونظم الشعر والانشاء ، وكان يصاحب الفضلاء وأهل الأدب ، وكان يسعى بشكل خاص لجمع الكتب وجلب الأدباء والشعراء ، وكان له مكتبة تضم عشرة آلاف مجلد مخطوط نفيس ، وكان يجمع حوله الشعراء والأدباء الذين نظموا شعرا باسمه ، وكتبوا باسمه ، وكان أشهر هؤلاء عز الدين عبد الحميد بن أبى الحديد (٥٨٦ ـ ٦٥٥ هـ) الأديب الفاضل المشهور الذي ألف كتاب شرح نهج البلاغة باسم هذا الوزير العالم ٠

كان ابن العلقمى كفوءا وصاحب مقام رفيع ، وكان زمام أمور الخلافة في يده ، وكان الخليفة يعتمد عليه أيضا ، ولكن لما كان ضعيف النفس فاقد الإرادة لذا كان يقبل كل ما يصدر عن الآخرين خاصة ما كان يصدر من عداء لابن العلقمى من خواصه الآخرين ، لم يكن في استطاعته معرفة وشايتهم ، وغالبا ما كان يحقق أغراضهم ٠

وقد أورد المؤرخون معلومات متضادة خاصة تدخل هذا الوزير في حصار بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ولما كانت حقيقة هذا الأمر غير واضحة فإن أغلب المؤرخين المسلمين خاصة السنة الذين حزنوا جدا من حادثة قتل الخليفة ، وانقراض بنى العباس يذكرون أن ابن العلقمى بسبب تشيعه كان يحقد على بنى العباس بسبب النهب والقتل في محلة كرخ بغداد ومشهد الإمام موسى على يد أبى بكر ابن الخليفة لذا صمم على أن يجعل

هولاكو يستولي على بغداد باى وسيلة ويقتلع بنى العباس ،ولهذا الهدف الخفي أرسل إلى هولاكو ونصير الدين الطوسي رسلا ونبههما على أحوال ضعف الخليفة وسهولة تسخير بغداد ،وتوجه ضمن جيش الخليفة إلى الأطراف وقال له أنه يجب أن يتصالح مع هولاكو ولا حاجة للجيش حتى أن هؤلاء المؤرخين كتبوا أنه أثناء المعارك بين أهالي بغداد وجيوش المغول حول المدينة ، أمر ابن العلقمي أن يفتحوا سداً على أحد الأنهار خارج بغداد ، وغرق جمع من جيش الخليفة لهذا السبب .

ولكن المؤرخين الشيعة عكس ذلك يبرأون ساحة ابن العلقمي من هذه الاتهامات ويذكرون أن كل ما حدث من أحداث مؤسفة نتيجة لضعف عزيمة الخليفة وظلم وجور ابنه أبي بكر ونفاق الأمراء وقواد الجيش فيما بينهم ، وخاصة أن محمد بن علي ابن طباطبا مؤلف كتاب الفخري الذى كتبه سنة ٧٠١ هـ أى بعد فتح بغداد بخمس وأربعين سنة قد رفض ما نسبه العامة لابن العلقمي ، ومدحه بالأمانة والصدق والتدين ، ونقل الشرح التالي بناء على ما ذكره ابن أخت ابن العلقمي :

" روى لي كمال الدين أحمد بن الضحاك ابن أخت ابن العلقمي انه عندما وصل هولاكو حدود بغداد ، طلب من الخليفة أن يرسل وزيره إليه ، فاحضر الخليفة ابن العلقمي وقال له : هولاكو يطلبك وكنت موجوداً معه ، خاطب الوزير الخليفة قائلا: إذا خرجت من المدينة، لمن ستعهد بأمور الخلافة !! قال الخليفة : لا مناص يجب أن تذهب ، فأطاعه الوزير ، والتحق بخدمة هولاكو ، وقدمه خواجه السعيد نصير الدين الطوسي بما يجب لهولاكو ، وسعد هولاكو بالوزير ، وعندما استولى على بغداد ، سلمه المدينة ولكن ابن العلقمي مرض بعد قليل وتوفى في جمادى الأول سنة ٦٥٦ هـ ، ولو

كان الوزير خائنا وناكرا للجميل مع الخليفة ما وثــق فيــه هولاكــو ابــدا وماسلمه بغداد .

على الرغم من كل هذا لا يمكن القول أن ابن العلقمي بنــاء علــى مــا يدعيه ابن الطقطقى ليس له دخل في هجوم هولاكو واقتلاع بنى العبــاس ، وإذا لم نصدق كل ما نسبه المؤرخون السنة عن ابن العلقمى المعروفــون بتعلقهم باسرة الخلفاء ، فهذه النقطة قابلة للبحث لأن ابن العلقمى إيرانــى شيعى المذهب بالاضافة إلى الحقد الذي يكنه لخلفاء بنــى العبــاس وأهــل السنة وكان قد استاء جداً من نهب الكرخ ومشهد الإمام موسى الكاظم وقتل شيعى بغداد ، وكان يناصب أمراء وعمال الخليفة العداء ، بل أنه لــم يــر الخليفة نفسه ضعيف النفس أهلا للخلافة ، خاصة أنه سلك طريق المصلحة ونفس أسلوب خواجه نصير الدين صديقه العالم وهــو تــرك الاسماعيلية وتحقيق هدف هولاكو ، وربما سلك المؤيد وزير الخليفــة هــذا الأسـلوب أيضا ، وهنا فإن سلوكه في التعصب المذهبي وإقدامه على هــذه العمليــات واقتلاع اعدائه لم تكن قط نظرة رجل متعصب بل إنها فــي حكــم مهمتــه الإيمانية وتكاليفه المذهبية ، ولقد كان السفر الملــيء بــالخوف والخطــر للقاضي شمس الدين القزوينى إلى بلاط خان المغول وسفر البابا ولويــس التاسع وسلاطين أرمينية جميعا هي نفس باعث تعصب المتدينين من أجــل الحصول على أجر أخروى وخدمة الدين والعقيدة ، وكل مــن سـلك هــذا الطريق لم يخجل قط من نفسه ولم يعتقد أن هذا العمل خيانة ، وفــي نفـس الوقت فرح المسيحيون في بغداد من تقدم هولاكو والمغول رغما عما حــدث للخليفة والمسلمين في دار الخلافة ، واستمدوا من المغول القوة لعلهم بهذه الوسيلة ينتقمون من غزوات السلطان جلال الدين منكبرتى على كرجســتان وقتل السلاطين الأيوبيين للصليبيين في الشام ومصر .

بعض المؤرخين يعتقد أن غزو هولاكو كان بإيعاز إيراني ويقولـــون أن هؤلاء القوم لم ينسوا عداءهم للعرب الذين دمروا مجـــد وعظمـــة إيـــران القديمة واقتلعوا دولة ساسان ، وحرضوا المغـــول للــهجوم علـــى بغـــداد ليدمروا آخر أثر مازال لدولة العرب في المشرق ، لدرجة أنهم قالوا : أنـــهم اعدوا البعض منهم لمساعدة المغول للانتقام من كتب الخلفاء وأنهم القـــوا كتب العرب - في فتح المدائن - في رجلة ، وملأوا بها الشط ، وصحة هذا الخبر وخطأه غير معروف ، ولاندرى هل هذه التهم التى ينسبها أهل الســنة للإيرانيين الشيعة حقيقية وهل للإيرانيين دخل في هذا العمل ؟ .

إن تدخل ابن العلقمى في هزيمة الخليفة وتقدم هولاكـــو غـــير واضـــح علىأى حال ، ولايمكن القطع بصحة كل أقوال المغرضين كما لا يمكـــن أن نعفى هذا الوزير من تدخله في هذه القضية المذكورة ، والاختلاف هنا هـــو أن المؤرخين السنيين إعتبروا هذا العمل خيانة عظمي ويعتقدون أن نجـــاة ابن العلقمى وإمثاله (القاضى شمس الدين القزوينى) عكـــس مـــا حـــدث لمخالفيه في المذهب والذي حدث على يد الكفار هو تشـــفى ، وحـــل هـــذه المسألة مرتبط أكثر بتحقيق صحيح لأوضاع هذه الوقت في بغداد ومعرفـــة أحوال الأهالي الذين كانوا يعيشون في تلك الأيام تحـــت حكومـــة الخليفـــة وعماله الظالمين - معرفة تامة .

أثر فتح بغداد

ان فتح بغداد وانقراض خلافة خمسمائة سنة لبنى العباس واحـــدة مـــن أكبر وقائع التاريخ الإسلامي ، وعلي الرغم من استقرار المغول في الممالك الإسلامية الشرقية وتقسيم دولة بنى العباس وعدم بقاء أماكن كثيرة في يـــد الخلفاء ولم يكن للخليفة نفوذ سياسي هام ولكـــن أكـــثر أهـــالي الممـــالك الإسلامية كانوا يعتبرون الخليفة أميراً للمؤمنين ووليا للأمر ، وكـــان لـــه نفوذه الديني كما كان من قبل حتى المسلمين الذين كـــانوا تحـــت ســـيطرة

المغول لم يجدوا مانعا من ان يخطبوا باسمه ويعتبرونه الرئيس الديني في الدنيا وخليفة الرسول (ص) ، ان معارضة المسلمين للسلطان محمد خوارزمشاه وابيه على الرغم من قوة هذين السلطانين لانحيازهم عن الخليفة العباسي الذي كان أهالي الممالك الإسلامية ينظرون إلى بغداد نظرة احترام ويعتبرون الخليفة غير قابل للتغيير أو التبديل أو الهجوم ، وحين توجه هولاكو صوب بغداد كان أحد المنجمين في ركابه ، فنهى خان المغول عن التحرك صوب دار الخلافة وقال إن قصد أسرة العباسيين غير مبارك ، وخوفه من العواقب الوخيمة ، ولكن هولاكو لم يهتم بقول هذا المنجم اعتمادا على رأى خواجه نصير الدين وأشخاص آخرين لم يستحسنوا هذه الأفكار ، واستولى على بغداد دون أن يظهر هذا الفساد .

أثار الاستيلاء على بغداد بواسطة هولاكو وقتل خليفة المسلمين بيد كفار المغول - سخط المسلمين في جميع البلاد خاصة أهل السنة ، واعتبروا ما حدث أهم وقائع العالم وأكبر لطمة أصابت المقام المقدس للخلافة وأسرة آل الرسول على يد أهل الكفر والشرك، وتأثر الشيخ سعدي الذي كان في تلك الوقت في شيراز أى بعيدا عن المعركة القاسية ويعيش في منطقة هادئة عندما سمع هذه الحادثة المروعة ولم يستطع أن يخفى تأثره وانشد قصيدة عظيمة في رثاء المستعصم وتأسف على زوال دولة العباسيين مطلعها :

حق على السماء إن تبكي دما
على زوال ملك المستعصم أمير المؤمنين

أثر آخر من آثار فتح بغداد وقتل المستعصم وآله في نظر أهل السنة هو سقوط الخلافة وخلاء الأرض من وجود رجل ولى أمر وعلى الرغم من أن هذه المسألة لا أهمية لها عند الشيعة الذين كانوا عدداً قليلا في مقابل المسلمين الآخرين ، ولكن كان سيئا جدا لجميع المسلمين ، ونفس هذه

القضية التى سنراها فيما بعد عندما يتلقفها الأتراك العثمانيون ويحيون موضوع الخلافة ثانية ، ويعتبرون أنفسهم ورثة خلفاء العباسيين وأمراء المؤمنين ، وكما تقدم أن هذه القضية أهم القضايا التى ستكون محل اهتمام في المرحلة الجديدة لإيران ٠

اختيار مراغه عاصمة وبناء المرصد

وبعد الاستيلاء على بغداد استولى هولاكو على أموال كثيرة بنهب خزائن خلفاء بنى العباس بالإضافة إلى غنائم كرجستان وارمنستان وبلاد الروم ولر وكرد وارسلها إلى أذربايجان ، وأمر ان يقيموا عمارة عالية في احدى الجزر الداخلية في بحر كبودان (بحيرة أورميه) الواقع ما بين مدينة سلماس واورمية ، وأقام فيها آلة ذهبية وفضية ٠٠٠ وهذه الجزيرة اختفت في الماء بناء على ما كتبه بعض المؤرخين في سنة وفاة ابقاخان يعنى سنة ٦٨١ هـ ٠

ولما كانت العلاقة بين هولاكو وأخية منكوقاآن قائمة على أساس الصداقة والوفاق ، أرسل هولاكو إلى أخيه مقداراً من الغنائم التى وقعت في يده في بغداد مع خبرفتح إيران والعراق وعزمه التوجه إلى مصر والشام ، ورعى بذلك خاطره ٠

وأثناء اقامة هولاكو في نواحى آذربايجان ومراغه جاءه عدد من أمراء وسلاطين النواحى للتهنئة بفتح بغداد ، ومن هؤلاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والاتابك سعد ابن الاتابك ابى بكر بن سعد السلغرى والسلطان عز الدين سلطان سلاجقة الروم وأخوه ركن الدين ٠

أتخذ هولاكو مراغة مقرا له وسبب ذلك كما يقال بالإضافة إلى سلامة مائها وهوائها أنه كان ينوى فتح الشام ومصر وأمر خواجه نصير الدين الطوسي أن يبنى في هذه المدينة في مكان مناسب مرصدا ٠

يقول رشيد الدين فضل الله مؤلف جامع التواريخ رشيدى ان منكوقـــآن عندما أراد إرسال هولاكو إلى إيران كان قد سمع بصيت فضـــل واســتاذية خواجه نصير الدين فطلب منه ان يرسل خواجه إلى البلاط بعد فتـــح قـلاع الملاحدة حتى يبنى مرصداً في مغولستان ولكن لما كان منكو مشغولاً فـــي ذلك الوقت بفتح جنوبي الصين رأى هولاكو أن ينفذ هذا العمل فـــي إيـران وتحت امرته .

أفهم خواجه نصير الدين هولاكو أن بناء مرصد جديد وكتابة زيج جديـــد يحتاج لثلاثين سنة ، ولكن عندما أصر هولاكو على هذا الأمر ، وطلب مـــن خواجه أن يتمه في أثنى عشر عاما ، ولما لم يستطع في هذه المدة رصـــد جميع الكواكب وحساب دورتها وإعداد جداول جديـــدة ، اسـتعان خواجــه بالجداول والزيجات السابقة والمراصد الجديدة التى بدأت سنة ٦٥٧ هـــ ، وأحضر بالإضافة إلى المنجمين والعلماء الإسلاميين الكبار خاصـــة الذيــن احضرهم من الأطراف استدعى أحد علماء النجوم الصينيـــين أيضـا إلــى مراغة ، وساعد هذا الصيني المنجمين المسلمين في إعداد التاريخ الصينــي وطريقة الحساب المعمول بها .

اختير مكان المرصد شمالي مراغة على تل ، وجلب هولاكو جميـع آلات الرصد اللازمة التي كان قد استولى عليها في بغداد وغيرها إلى هناك تحـت إمرة خواجة نصير الدين ، وأمر هولاكو بالإضافة لذلـك ان تكـون جميـع ممالك المغول تحت إمرته .

استمر مرصد مراغة قرابة خمس عشرة سنة ، وفي سنة ٦٦٣ هـــ أى في أيام ابقاخان نشر خواجه نصير الدين نتائجه فـــي كتـاب باسـم زيـج ايلخانى .

والمنجمون الذين ساعدوا خواجة نصير الدين في عمل مرصد مراغة هم العلامة قطب الدين الشيرازى ومؤيد الدين العرضى الدمشقي ومحيى الديـن المغربي وفخر الدين المراغي وفخر الدين الخلاطى ونجـم الديـن دبيران كاتبى القزوينى وكلف بناء مرصد مراغه قرابة عشرين ألف دينـار ،وقـد ترك المرصد بعد ابقا والآن لم يبق أى شيء منه سوى اطلال .

غزو هولاكو للجزيرة والشام

أثناء قيام هولاكو بفتح بغداد ،أرسل أحد قواده اسمه أرقيونويـان إلـى اربل ليستولى على قلعتها الحصينة ، وكانت هذه القلعة بيد جماعـة مـن الأكراد ، وظل ارقيو فترة حول القلعة ، ولم يوفق في فتحها حتـى فتحـها بمساعدة ورأى بدر الدين لؤلؤ ،وتوجه إلى الشام بعد تخريبها .

كانت الجزيرة والشام في تلك الحين في يد سلاطين الأيوبييـن ، وكـان ستة شعب من هذه الأسرة يحكمون في ميافارقين وحصـن كيفـا والكـرك وحلب وحماه وحمص ، ولكن لسوء الحظ كان النفاق والعـداء مستحكما بينهم ولو اتحدوا فيما بينهم فعلا ، لامتنعوا على جيوش هولاكو .

ويعتبر صاحب حلب الملك الناصر يوسف (٦٤٠ - ٦٥٩ هـ) افضـل هؤلاء السلاطين جميعا ، أرسل بعد فتح بغـداد سـنة ٦٥٦ هـ التحـف والهدايا مع ابنه ووزيره إلى هولاكو من بـاب المصلحـة ، وابـدى ولاء وطاعة ، ولم يقبل السلاطين الأيوبيون الآخرون سلوك الملك الناصر الـذي يدلل على ضعفه التام وعجزه أمام المغول ، واضمـر هـؤلاء السـلاطين العداء، واتفقوا لدفعه ، ولم ير الملك الناصر مفرا إلا بطلب المساعدة مـن هولاكو ، وساعدت هذه القضية هولاكو أكثر من ذى قبل للتوجه إلى الشـام، وقبل توجهه إلى الشام أرسل هولاكو رسلا إلى بدر الديـن لؤلـؤ بمدينـة الموصل ، وارسل رسالة من انك طالما انت مـن أرسـل ابنـك الملـك الصالح، ليرافق جيوش التاتار في فتح الشام ومصر ، فأطاعه بـدر الديـن

ايضا وزوج هولاكو تركان خاتون ابنة السلطان جلال الدين منكبرنى للملك الصالح ، ثم توجه هولاكو في رمضان سنة ٦٥٧ هـ ومعه بايجو وسونجاق والقواد الآخرون صوب بحيرة وان (بحيرة خلاط) وديار بكر ، وأرسل ابنه يشموت مع سونتاى نويان لمحاصرة ميافارقين والملك الصالح لفتح آمد (دياربكر) ، واستولى بنفسه على مدينة الرها ونصيبين ، ثم اهتم بمحاصرة حلب بعد عبور الفرات ، وأمر كل واحد من قواده ببوابة من بوابات المدينة ٠

قاوم أهالى حلب ،ولكن هولاكو بمساعدة كيتوبوقا وارقيونويان وسونجاق استولى على هذه المدينة بعد أسبوع من يد الملك المعظم تورانشاه عم الملك الناصر يوسف ، وانتهب المغول حلب أسبوعا كاملا ، وقتلوا خلقا كثيرين من أهلها ، ولكن القلعة قاومت أربعين يوما ٠ وفي النهاية طلب أهلها الأمان وسلموا القلعة لهولاكو ٠

أرسل أهالي دمشق التحف والهدايا إلى هولاكو خشية أن يصيبهم ما أصاب أهالي حلب ، وانصاعوا لحكم المغول ، فأرسل هولاكو كيتوبوقا أيضا للاستيلاء عليها ، وسقطت دمشق في يد المغول على هذا النحو سنة ٦٥٧هـ ٠

بينما كان هولاكو مقيما في حلب وصله رسل الشرق وأخبروه بوفاة منكوقاآن ، فحزن هولاكو كثيرا ، وترك كتيوبوقا في نواحي الشام ، وعاد من الشام إلى اخلاط في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٦٥٨ هـ ،وعندما أوشك العبور من حدود دمشق ، سيّر رسولا إلى مصر ودعاهم لقبول طاعته ٠

موقعة عين جالوت في رمضان ٦٥٨ هـ

كان حكم مصر كما ذكرنا من قبل منذ استيلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي وهى في يد أفراد أسرته ، وبعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ ازداد ضغط الوجود الصليبي المسيحي وهجوم المغول ونزاع بنى اعمامهم في الشام وفلسطين مع النفاق ،وكانوا لا يمانعون من طلب المساعدة من الصليبيين المسيحيين لتحقيق مآربهم .

وصل ابن الملك الكامل الملقب بالملك الصالح ايوب إلى حكم مصر في سنة ٦٣٧ هـ بعد عزل أخيه بمساعدة الغلمان الأتراك أى المماليك وبقية جنود جلال الدين خوارزمشاه المسمون بالخوارزميه بعد قتل هذا السلطان واشتعال المعارك في الجزيرة والشام بين قوادهم ، وفي النهاية دخلوا مأجورين في خدمة الملك الصالح وبالقرب من غزة هزم الصليبيون المسيحيون والأيوبيون الذين كانوا يساعدونهم وضم الشام لمصر .

وفي سنة ٦٤٥هـ هاجم الصليبيون المسيحيون بقيادة لويس التاسع الملقب بالملك المقدس ملك فرانسه مصر ، واستولوا على ميناء دمياط ، وكان الملك الصالح في ذلك الحين في الشام ، يفكر في فتح حمص ، وعاد سريعا إلى مصر ، وتقدم لصد الصليبيين ، ولكنه لما كان مريضاً مات في المواقع الخلفية في مصر ،ولم تتح له فرصة حرب لويس سنة ٦٤٥ هـ .

كان للملك الصالح ابن ، كان يحكم حصن كيفا نيابة عن والده وهو تورانشاه الملك المعظم الذي ذكرناه عدة مرات .

كانت ام هذا الابن إحدى الجوارى المحبوبات للملك الصالح وهى تلقب بشجرة الدر ، وسعت هذه المرأة خفية لتوصيل ابنها خلفا للملك الصالح بمساعدة رجلين من أمراء السلطان المتوفي ، ذلك لأن الملك الصالح لم

يعين أحدا خلفاً له ، واستدعت تورانشاه من حصن كيفـا ، وأعلنـت انـه خليفة الملك الصالح ، وجلس تورانشاه على الحكم بعد وصوله مصر .

هزم الصليبيون الجيش الإسلامي في مصر قبـل وصـول تورانشـاه ، وبدأوا يتقدمون صوب القاهرة ، وجدد وصول الملك المعظـم الأمـل فـي نفوس المسلمين ، واستولوا علي أثنين وثلاثين سفينة مـن السـفن التـى كانت تحمل المؤن للصليبيين وواجه الصليبيون قحطا وعطشا ولـم يجـدوا مناصا إلا التقهقر ، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة في هذه الموقعـة، وهجموا على الصليبيين المهزومين، وفي الثاني من المحـرم سـنة ٦٤٨ هـ أسروا لويس التاسع مع عدد من امرائه ، وصمم الملك المعظم بعد هـذا النصر ان يتخلص من قبضة الأمراء والمماليك، ولكن ثار المماليك وقتلـوه وانتهت سلسلة الأيوبيين في مصر في المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

كان المماليك غلمان كثر عددهم في الشام ومصر إثر اسـتيلاء المغـول وفرار الأهالي أمامهم ، واشترى الملك الصالح جماعة منهم بمثابة حراسة الخواص ، ومن هؤلاء أعد جيشا ولما كان معسكر هـؤلاء علـى سـواحل الفرع الشرقي للنيل أي القسم البحري يسموهم المماليك البحرية ، وقد قضى هؤلاء المماليك على تورانشاه ولم يستطيعوا ان يتحدوا وظلـوا مختلفيـن وامتد الخلاف فيما بينهم حتى خرج لويس ملك فرانسه وسائر المحبوسـين من حبسهم بعد دفع مبلغا من المال فدية ، لدرجة أن أحد قاتلي تورانشـاه سل سيفه الدامي الذي قتل به ملك مصر أمام لويس وطلب منه الجائزة .

تعاونت شجرة الدر بمالديها من كفاءة وقدرة مع أحد رؤساء المـماليك وهو عز الدين ايبك التركماني ،واستولت على سلطنة مصر ، ولكن خليفـة بغداد المستنصر لم يعترف بتصدى إمرأة للحكم ،وسلم مماليك دمشق أيضـا

هذه المدينة لملك حلب الأيوبي ، وفي النهاية تزوجت شجرة الدين من آيبك وتلقب آيبك بالملك المعز سنة ٦٤٨ هـ .

تمردت جماعة آخرى من المماليك الذين ارتبط اسمهم بالملك الصالح وهم المماليك الصالحية - على آيبك ، ورفعوا أحد ابناء الأيوبيين باليمن على الحكم ، واعتبروا آيبك فقط مجرد وصى (اتابيك).

وطلب صاحب حلب ايضا المساعدة لأخذ الثار لابن عمه الملك المعظم من جميع أفراد البيت الأيوبى وأخيرا سقط في قبضة المماليك التابعين لآيبك واضطر قبول الصلح ، وفي سنة ٦٥١هـ سلم سواحل فينيقيه وغزه وبيت المقدس ونابلس لمصر .

ولما لم تنجب شجرة الدر من آيبك ، فقد جمع آيبك في حرمه امرأة آخرى ، وكان بصدد الزواج من ابنة بدر الدين صاحب الموصل ، فقتلته شجرة الدر سرا في ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ اى سنة قبل فتح بغداد على يد هولاكو ، وقتل المماليك أيضا شجرة الدر بطريقة قاسية ، ووضعوا على السلطنة ابن ايبك ابن الخامسة عشرة ، وجعلوا الأمير سيف الدين قدوز وصيا عليه وخلع قدوز ابن ايبك عن السلطنة في ذى الحجة سنة ٦٥٧ هـ ولقب بالملك المظفر ، وهو بادعاء جماعة أنه كان من أمراء أسرة خوارزمشاه الفارين ، وقد علا شأنه في مصر بسرعة ، وزاد عدد تابعيه لحسن سلوكه وكرمه وكان من جملة هؤلاء من تبقى من السيف من جيش السلطان جلال الدين خوارزمشاهى أى الخوارزمية والذين فروا أمام سيل المغول ، وكان مجيء رسل هولاكو إلى مصر لطلب الطاعة في نفس وقت بداية سلطنة وسيطرة الأمير قدوز .

قتل الأمير قدوز رسل هولاكو بعد مشورة كبار أمرائه وتوجه بجيشه المدرب صوب فلسطين .

عاد هولاكو خان كما ذكرنا من قبل إلى منغولستان ، وكان قد ترك كيتوبوقا مع عشرة آلاف فارس مغولي في الشام ، هزم قدوز جيش المغول هزيمة ساحقة في عين جالوت (في فلسطين) وبقي منهم القليل ، وأسر كيتوبوقا حيا وقُتل في رمضان ٦٥٨ هـ .

النصر في عين جالوت من الوقائع التاريخية الهامة في مصر والشام ، ذلك لأنها سدت الطريق أمام الهجوم المغولي على مصر ، وكسرت شوكة المغول وهولاكو الذى لم يهزم من قبل ، وقد حزن هولاكو عندما سمع خبر مقتل كيتوبوقا وصمم على الانتقام لدمه، ولكن لم يوفق لاتمام هذا الانتقام بسبب المرض .

ولكن قدوز لم يجن ثمرة هذا النصر ذلك لأنه قُتل في ذى العقدة سنة ٦٥٨ هـ على يد أحد رؤساء المماليك الأمير بيبرس ركن الدين البندقدارى، وتلقب بيبرس بلقب الملك الظاهر ملك مصر ، وكما سنرى فيما بعد أنه من عظماء سلاطين الإسلام .

أثناء حرب عين جالوت كان يشموت ابن هولاكو يحاصر ميافارقين سنة ٦٥٦ هـ ، وكان يحارب الملك الكامل الأيوبى ، وبعد عامين استولى عليها نتيجة القحط والغلاء بين الأهالي ، وقتل المغول الملك الكامل .

وبعد فتح ميافارقين حاصر يشموت مدينة ماردين ، ولم يوفق في فتحها على الرغم من محاصرتها ثمانية أشهر وفي النهاية قتل ابن صاحب القلعة أباه، وسلم القلعة إلى يد المغول .

وفي سنة ٦٥٨ هـ توفي بدر الدين لؤلؤ الملقب بالملك الرحيم صاحب الموصل ، وحل محله ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وبسرعة حرر الموصل، ودعا التتار الذى قتل عند ... ، وزوده بيبرس بعدد من الفرسان ، وجاء إلى الموصل ، وحاصر المدينة ، وحارب الملك الصالح

بمساعدة بيبرس المغول ، ثار أهالي المدينة ثورة عارمة ، وضربوا المغول ضربات قوية .

عندما وصل خبر القتال بين أهالي الموصل والمغول إلى بيبرس من ناحية وإلى هولاكو الذي كان في آذربايجان من ناحية أخرى أرسلا جيوشا لمساعدة الطرفين ولكن المغول قطعوا عليهم الطريق عندما علموا بوصول جيش مصر والشام ، وهزموهم ، وارتدوا ملابس الشاميين ، وتوجهوا إلى الموصل واعتقد أهالي الموصل أنهم الشاميين الذين جاءوا لمساعدتهم فخرجوا من المدينة فأسرهم المغول وقتلوا جمعا منهم .

ولم يوفق المغول على الرغم من ذلك في الاستيلاء قلعة الموصل ، وطال الحصار حتى أصاب المدينة القحط ، وطلب الملك الصالح الأمان ، فاستولى المغول على الموصل في رمضان ٦٦٠ هـ ، وقاموا بالقتل العام، ولفوا الملك الصالح بأمر هولاكو في لباد وذنب حيوان والقوه في الشمس حتى تولد الدود في الذنب بعد أسبوع وأكل الدود جسده ، ومات بهذه القسوة ، وشقوا ابنه ابن الثالثة نصفين على شاطئ دجلة ، وعلقوا كل نصف بناحية حتى بلى .

مرض هولاكو في سنة ٦٦٣ هـ

بعد أن فرغ هولاكو من فتح باقي إيران والشام ، فكر في الملك ودفع أعدائه الشخصيين ، ومن هؤلاء ابن جوجي ويدعى بركاى الذى كان يحكم في صحراء القبجاق ، ولما كان يسعى بإيعاز من أخية باتو لتوصيل منكوقاآن إلى مقام الخان ، وكان يعتبر نفسه أفضل من هولاكو ، ووصل أمر العداء بين هولاكو وبركاى آخر الأمر إلى القتال ، وأرسل بركاى من القبجاق ثلاثين ألف جندي لقتال هولاكو في إيران ، وعبر هذا العدد من ممر قفقازيه ، وأثاروا الاضطراب في شروان ، وجاء هولاكو في شوال سنة ٦٦٠ هـ إلى شماخي وهزم جيش بركاى ، وتوجه صوب الممر ،

وأرسل ابنه ابقاخان (اباقاخان) إلى ممالك بركاى ، ونـــهب جنـــود ابقـــا منازلهم وأموالهم ، ولكن بركاى أعد جيشا في نواحي نهر ترك لمهاجمـــة جيش اباقاخان ، وهزمه في جمادى الأولي سنة ٦٦١ هـ وعاد اباقاخـــان إلى داغستان ، وجاء هولاكو تبريز ، ليقوم بدرأ هذا الخطر ، ويستعد فـــي العام التالى ، وفي تلك الأيام وصل خبر جلوس قوبيلاى قاآن على عـــرش خان المغول وتفويض سلطنة الممالك من شط جيحـــون والشـــام ومصـــر لهولاكو .

قسم هولاكو ايضا هذه الممالك بين ابنائه وامرائـــه المخلصيـــن فسلم العراق وخراسان ومازندران إلى ابنه الأكبر اباقاخان ، وآران وآذربيجـــان ليشموت وأعطى ممالك الروم لمعين الدين بروانه الذى كان من قبل وزيـــراً لسلاجقة آسيا الصغرى ، وسلك طاعة المغول ، وكرمان لتركـــان خـــاتون وفارس إلى الأمير انكيانو والجزيرة إلى أحد امرائه .

كانت وزارة هولاكو منذ بداية محبيته إيران أى ســـنة ٦٦٣ هـــ بيـــد الأمير سيف الدين بيكجى الخوارزمى ، وقد تقلد هذا الرجل وزارة هولاكـــو من سنة ٦٦١ هـــ ، وعندما توجه هولاكو لدفع بركاى في صحراء القبجان قتل هذا الوزير في منطقة الممر بوشاية جماعة من الوشاة ، وسلم وزارتـــه لشمس الدين محمد جوينى الملقب بصاحب ديـــوان وهـــو أخـــو عطـــاملك المؤرخ المعروف - وكان شمس الدين من سنة ٦٥٧ هـــ علـــى حكومـــة بغداد ، وترك حكومة بغداد لأخيه عطاملك .

وقبل أن يتوجه هولاكو وخان لحرب بركاى وأعدائه مرض فـــي ربيـــع الأول سنة ٦٦٣ هـــ ، ومات في ١٩ ربيع الآخر من نفـــس الســـنة علـــى شاطىء نهر جغاتو (جنوب بحيرة أورمية) وكان عمره ثمانية وأربعيـــن عاما ، ودفنوه في جبل شاهو في مواجهة دهخواركان .

سياسة هولاكوخان

هولاكو واحد من ملوك المغول الذين يحبون العمران ، وقد بنى في نواحي مراغة وبحيرة أورميه ونهر جغاتو وجبل آلاتاغ أبنية ، كان يميل إلى الحكمة والنجوم والكيمياء ايضا ، وقد انفق كثيرا من المال الذى استولي عليه في مجال الكيمياء ، وكان لديه رجل بوذى فاقتام المعابد ، ولكن زوجته دوقوزخاتون حفيدة أونكرخان آخر ملوك الكرائيت المسيحيين وكانت هذه المرأة في البداية زوجة تولوى والد هولاكو وبعد تولوى وصلت إلى ابنه هولاكو ، وسيطرت هذه المرأة تماما على هولاكو ، ولرعاية خاطرها أكرم المسيحيين وكلفهم بالوظائف الهامة كما كان كيتوبوقا القائد المشهور واحداً من هؤلاء ٠

ولما لم يكن في إيران أى شخص بوذى لذا اهتم هولاكو تحت تأثير نفوذ زوجته وامرائه برعاية حال مسيحيي إيران الذين كانوا بكثرة في آذربايجان وارمنستان ، وأقام لهم في كل مكان كنيسة ، وكانوا يدقون الناقوس في معسكر دوقوز خاتون ، وكانت هذه السيدة قد اتخذت من رئيس اساقفة الأرمن »ويدعى وارتان« مستشار ا لها ، وحظي الأرمن والمسيحيون الآخرون في إيران الذين لم يسعدوا في أى وقت بسيطرة المسلمين – بحماية هولاكو ودوقوزخاتون خاصة هؤلاء الذين ذكرناهم من قبل وسعوا لتقوية قدرة المغول لتحقيق فوائد دينية ، وساعدوا المسيحيين في الشام ومصر ضد المسلمين وسعوا لاقتلاع الإسلام نهائيا من آسيا وأفريقيا ٠

وكان هجوم المغول على الشام ومصر ايضا لتحقيق هذا الهدف وخاصة أن كيتوبوقا شرع بعد استيلائه على دمشق في تحويل مساجدها إلى كنائس، ولولا شجاعة وكفاءة الأمير قطز ونصره في عين جالوت لاستولى المغول على آخر معقل إسلامي أى فلسطين وشمال أفريقيا ، ومن قبل

اصرار للصليبية المسيحية لقلع أس المسلمين كان هناك مشكلة أخرى تؤثر في روح الإسلام وهى الحقد بين العدوين المتعصبين .

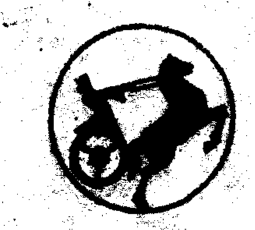
وعلى الرغم من أن موقعة عين جالوت ليس لها أهمية كبيرة - من وجهة نظر العسكريين - ولكنها هامة جدا خاصة أنه بعد هذه الهزيمة لم يستطع المغول أن يتقدموا ويفتحوا الشام ومصر ، وتسبب أيضا في رفع الحقد الذي كان يكنه المغول للمسلمين وبالتدريج أسلم مغول صحراء القبجاق والخزر والتركستان .

أصبحت ممالك سلاطين إيران المغول - طبقا لما سنشرحه فيما بعد - بين ممالك الشام ومصر المسلمين وممالك المغول المسلمين الجدد في التركستان وصحراء القبجاق، وبالتدريج دخلوا الإسلام وارتقى أمر إسلامهم لدرجة أن أصبحوا ناصرين ومؤيدين للشريعة المحمدية وانهزمت سياسة مسيحي وأرمن إيران في مواجهة نفوذ أمراء ووزراء مسلمي إيران .

تاریخ مغول

از حملهٔ چنگیز تا تشکیل دولت تیموری

عباس اقبال



مؤسسهٔ انتشارات امیرکبیر
تهران، ۱۳۶۴

مأموریت هولاگو و دفع اسمعیلیه از ۶۵۱ تا ۶۵۴

با اینکه مغول بیشتر ممالك اسلامی را در زیر سم ستور خود پایمال کرده و مردم آنرا بقبول اطاعت و ایلی وادار نموده بودند هنوز در قسمت غربی آسیا اسلام چنانکه باید مغلوب نشده بود ومراکزی وجودداشت که مغول تا این تاریخ نتوانسته بودند برآنها دست یابند.

از یك طرف در تمام قهستان و رودبار الموت و دره های جنوبی سلسلهٔ البرز فدائیان اسماعیلی قلاع مستحکمی داشتند که پناهگاه جماعتی مجاهد خنجر زن بود واین جماعت بشرحی که در تاریخ سلاجقه و خوارزمشاهیان دیده شده از یك قرن و نیم قبل دراین حدود قوت و قدرتی داشتند وپیوسته اسباب آزار و زحمت مخالفین خود را فراهم میساختند.

از طرفی دیگر خلافت اسمی بنی عباس در بغداد بجا بود و با اینکه خلیفه هیچگونه اقتدار و اعتباری نداشت باز چون برمسلمین رئیس وامیرالمؤمنین شناخته می‌شد صاحب نفوذ روحانی بشمار میرفت وممکن بود که بوسیلهٔ اشاره و صدور حکم بعضی ازامرای مطیع را باسم حفظ خلافت ودفاع اسلام بجنبش بیاورد.

از این دوامر گذشته مصر وشام هنوز بدست سلاطین ایوبی بود و مغول مجال نکرده بودند برآن نواحی استیلا یابند وسلاطین این دو ناحیه هم بشرحی که سابقاً گفتیم از مدتی پیش گرفتار کشمکش باعیسویان اروپا وصلیبیون بودند وبااقوام فرنگ جهاد میکردند.

باوجود تمام بلیاتی که اسلام از ابتدای هجوم مغول دیده وزخم‌های جانگزائی که ازدست این قوم چشیده بود هنوز حال نفاق در بین مسلمین دوام داشت.

از طرفی اسماعیلیه با سایر مسلمین دشمن صلبی بودند وهر کس را که قدرتی پیدا می کرد به وسیلهٔ فدائیان خود بقتل میرسانیدند وسراسر ممالك اسلامی مشرق را دوچار وحشت کرده بودند . ازطرفی دیگر امرای ایوبی چنانکه دیدیم با یکدیگرو با سلاطین سلجوقی آسیای صغیر وامرای دیگر الجزیره نمی‌ساختند ودائماً برسر یك قلعه یا یك وجب زمین همدیگررا ضعیف می کردند بلکه از هم نیز پیش حکام و خوانین مغول سعایت می‌نمودند ومغول را در گرفتن بقیهٔ ممالك اسلامی محرك می‌شدند .

مغول که کاملاً باین اوضاع واحوال آشنائی داشتند درصدد بر آمدند که اسماعیلیه وبنی عباس را ازمیان بردارند و آخرین ممالك اسلامی قسمت غربی آسیا را نیز تسخیر کنند. کسانی که مغول را درانجام این مقصود کمك می کردند یکی مسلمانهای رعیت مغول بودند که ازظلم و جور ملاحده بجان آمده و بهر وسیله بود قلع مادهٔ فساد ایشانرا آرزومی کردند ومحرك مغول در تجدید لشکر کشی بایران وبرانداختن بنیاد قلاع اسماعیلیه بودند، دیگر ارامنه که بعلت کینهٔ مذهبی بامسلمین تابع خلفای عباسی میخواستند مغول بغداد را بگیرند ومسلمین مصر وشام را که با عیسویان صلیبی جهاد می کنند مغلوب نمایند واسلام را براندازند. مسافرت پادشاه ارمنستان هتوم (حاتم) بدربار منکوقاآن وعقد اتحاد بااوجهت تهیهٔ زمینهٔ این کار بود و خان مغول چنانکه باووعده کرده وخیال خوداونیز بود برادرش هولاکو را بدفع اسماعیلیه وتنبیه خلیفهٔ عباسی وفتح مصر وشام فرستاد ومقرر کرد که جورماغون وبایجو وامیرارغون درتحت فرمان اودر آیند.

هولاکو که مادرش سرقوی‌تی عیسویه بود وزوجه اش دوقوز خاتون نیز به مذهب مسیح ایمان داشت با لشکریانی که اکثرشان از طوایف عیسوی مغول یعنی از اقوام کرائیت ونایمان واویغور بودند در آخرسال ۶۵۱ بطرف ایران حرکت نمود.

مرکز عمدهٔ اسماعیلیه کوه های ولایت طالقان ورودبار الموت بود و در این حدود قریب پنجاه قلعهٔ مستحکم وجود داشت که اسماعیلیان آنها را بتصرف خود آورده بودند ومشهورترین آنها سه قلعه بوده الموت [1] و میمون دز و لنبه‌سر والموت به منزلهٔ

---

۱ ـ الموت مرکب از دولغت است اله یعنی عقاب وآموت مخفف آموخت . حمدالله مستوفی میگوید : آن قلعه را در اول اله آموت گفته‌اند یعنی آشیانهٔ عقاب که بچگان را بروآموزش کردی بمرور الموت شد . (نزهة‌القلوب ـ ص ۶۱ .)

پایتخت ودارالملك اسماعیلیان ایران حساب می‌شد .

غیر از رودبار الموت اسماعیلیان در ولایت قومس (سمنان و دامغان حالیه) و قهستان نیز قلاع استوارمتعدد داشتند . ادارهٔ این قلاع که بیکصد و پنجاه میرسیده بایکنفر حاکم‌بود که‌اورا محتشم‌می گفتند واین‌محتشمان درمدت‌حکومت‌ومحتشمی زن با خود نداشتند واین ترتیب گویا برای آن بوده که همه وقت حاضر دفاع وفرار باشند وبچیزی‌و کسی‌بستگی پیدا نکنند .

رودبار الموت که محل عمدهٔ اجتماع اسماعیلیان بود تا شهر قزوین شش فرسخ بیشتر فاصله ندارد وچون مردم قزوین هم بتسنن معتقد و در عقیدهٔ خود نیز راسخ و متعصب بودند غالباً بین اسماعیلیه و اهالی قزوین‌نزاع وجدال درمی گرفت ومیان ایشان و فدائیان اسماعیلی پیوسته حال جنگ باقی بود . محمد بن علی بن طباطبا معروف با بن‌الطقطقی مؤلف کتاب معروف الفخری میگوید : « ملك‌امام‌الدین‌یحیی‌بن‌افتخاری برای من نقل کرد که چون در قزوین بودیم شبها جمیع اموال خودرا از اثاثه وقماش و بار در سردابهائی که درخانه داشتیم پنهان می کردیم و ازترس دستبرد ملاحده چیزی بر روی زمین آشکار نمی گذاشتیم وچون صبح میشد آنها را بیرون می‌آوردیم وشب دیگر عین این عمل را تکرارمی کردیم ،کارمردم قزوین تا مدتها برداشتن کارد و اسلحه باخود بود وکار ملاحده دستبرد و آزار تا آنکه قاضی قزوین شمس الدین بخدمت قاآن رفت‌وبرای تخریب قلاع ایشان قشون‌آورد . »

(ترجمه از کتاب‌الفخری ـ ص ۲۱ .)

«ثقات چنین روایت کرده‌اند [1] که جملهٔ خلق و ساکنان شهر قزوین را سلاح تمام مرتب و آلات حرب مهیا باشد تا بحدی که اهل بازار هریك را سلاح تمام در دوکان حاضر بودی و هرروز میان قزوینیان و میان ملاحدهٔ الموت جنگی میبودی تا در این عهد که خروج چنگیزخان بود واستیلای لشکر مغول برعراق و جبال و قاضی شمس الدین [احمد کافی] قزوینی که امام صدیق و عالم با تحقیق بود چند کرت ازقزوین بجانب خطا سفر گزیده بود ورنج مفارقت اوطان تحمل کرده تا در وقت پادشاهی منکو خان کرت دیگر نزدیك او رفت و بطریقی که دست داد استمداد نمود وحال شر ملاحده وفساد ایشان در بلاد اسلام باز گفت وچنان تقریر کردند که در حضور منکوخان ازراه صلابت مسلمانی ودین کلمات‌درشت گفت‌چنانچه

۱ ـ نقل از طبقات ناصری ـ ص ۴۱۱ ، ۴۱۴ بعین‌عبارت .

غضب وتکبر ملکداری بر منکوخان مستولی شد وضبط وتصرف پادشاهی او رابلفظ عجز وضعف یاد کرد. منکوخان گفت قاضی در مملکت ما چه عجز مشاهده کرده است که از این جنس کلمات موحش برزبان می‌راند. قاضی شمس‌الدین گفت عجز بزرگتر از این چه باشد که جماعت ملاحده قلعه‌ای چند را پناه ساخته‌اند و دین آن جماعت برخلاف دین ترسائی وخلاف دین مسلمانی ومغلی است. به مال شما را غرور می‌دهند ومنتظر آنکه اگر دولت شما اند کی فتور پذیرد آن جماعت ازمیان کوهها وآن قلاع خروج کنند وباقی ماندگان اهل اسلام را براندازند وازمسلمانی نشان نگذارند. این معنی خاطرمنکوخان را باعث ومحرض آمد برقمع قلاع ملحدستان وقهستان والموت.»

علاوه براین امر اسماعیلیه که درعهد چنگیز از در اطاعت نسبت به مغول در آمده وجلال الدین حسن پیشوای ایشان قبل ازهر یك ازامرای ایران فرمان چنگیز را پذیرفته بود ودر عهد جلال الدین منکبرلی هم بطریق غیر مستقیم اسباب پیشرفت کار مغول شده بودند در این تاریخ از جاده فرمان برداری منحرف گردیده و در یکی از حملاتی هم که مغول بقلاع ایشان کرده یك نفر ازسران آن قوم رابقتل آورده بودند.

با وجود تاخت و تازهای جرماغون و بایجو در حدود عراق و چندبار زد و خورد با قشون خلیفهٔ بغداد مغول بتسخیر دارالخلافه ویا لااقل بمطیع ساختن خلیفه موفق نیامده بلکه شکست نیز یافته بودند واین قضیه هم برخان مغول وسران سپاهی او سخت گران آمد چنانکه بایجو ازخلیفه المستعصم بالله پیش منکو قاآن شکایت کرد ودردفع او یاری طلبید.

بنابراین مقدمات منکو قاآن تصمیم گرفت که لشکری فراوان به ایران روانه دارد تا ازیك طرف ملاحدهٔ اسماعیلی را دفع کنند و از طرفی دیگر خلیفه بغداد را از میان برداشته راه تسخیر ممالك شام و مصر را باز نمایند. منکو قاآن بعد از مشورت باسران مغول برادر کوچکتر خودهولاکورا که دراین تاریخ بیش‌ازسی‌وشش سال نداشت نامزد این مأموریت مهم نمود و امر داد که با ۱۲۰۰۰۰ نفر از سپاهیان زبدهٔ چنگیزی وجمعی ازشاهزادگان و امرای بزرگ تاتار بطرف ایران حرکت کند و از کنار شط جیحون تا اقصی بلاد مصر را تحت امر مغول بیاورد. هولاکو در

ربیع الاول سال ۶۵۱ از اردوی منکوقاآن بطرف جیحون سرازیر گردید و جماعتی از استادان نفط انداز وچرخ انداز ختا را بامقداری عرادهٔ جنگی ومنجنیق با خود همراه برداشت وچون خود در حرکت شتاب زیاد نداشت یکی ازامرای عیسوی اردوی خویش کیتو بوقا را با ۱۲۰۰۰ نفر مقدمةً روانهٔ حدود قهستان ورودبار کرد وخوددر تاریخ ۶۵۳ بشهر سمرقند رسید .

کیتو بوقا سال بعد بقهستان آمد وبتاخت وتاز درآن حدود وخراب کردن قلاع اسماعیلیه مشغول شدو بعضی از آن حصارراگشود سپس با ۵۰۰۰ سوار و ۵۰۰۰ پیاده بطرف دامغان حرکت کرد ویکی ازقلاع مستحکم اسماعیلیان یعنی گرد کوه یا دز گنبدان را که تا دامغان سه فرسخ فاصله داشت محصور نمود وامر داد تادر اطراف آن خندق کندند وجمعی ازلشکریان تاتاررا آنجا گذاشته خود بتسخیر قلاع رودبار وطارم شتافت .

محصورین گرد کوه برمغول شبیخون کردند وقریب صد نفر از ایشان را کشتند وبکمك هائی که ازجانب علاءالدین محمد جانشین جلال الدین حسن پیشوای ایشان می‌رسید مستظهر شده در مقابل حملات مغول مقاومت سخت بخرج دادند ولشکریان کیتوبوقا با اینکه بسیاری ازقلاع اسماعیلیه را گرفتند بگشودن گرد کوه توفیق نیافتند.

ریاست وپادشاهی اسماعیلیه دراین تاریخ با خداوند علاءالدین محمد(۶۱۸-۶۵۳) بود که کفایت وعقل پابرجائی نداشت وبیشتر ایام را بفسق ومستی می گذرانید پسر او رکن الدین خورشاه که چندان ازحرکات پدر خرسند نبود بقتل اورضا داد وچون علاءالدین را یکی ازحاجبان او درحالی که مست خفته بود بقتل آورد رکن الدین به مقام پدر برقرار وپیشوای کل ملاحده ایران وشام گردید (۶۵۳) .

محتشمی قهستان را دراین تاریخ ناصرالدین عبدالرحمن بن ابی منصور داشت واومردی کریم وفضل دوست وفلسفی مشرب و طالب ترجمهٔ کتب حکمتی از عربی بفارسی بود وفضلا را بدربار خوب جلب می کرد.

در موقعیکه کیتوبوقا مشغول تسخیر قلاع رودبار و قهستان بود هولاکو با همراهیان فراوان مستعد خود بماوراء النهر رسیده در خارج سمرقند اقامت گزید و در این محل از طرف امیر مسعود بیك پذیرائی شایان از او بعمل آمد وپس ازچهل

روز اقامت در آن حدود اردوی خود را بشهر کش انتقال داد ودراین شهر امیرارغون حکمران ایران شرقی وملك شمس الدین کرت پادشاه هرات وفیروز کوه وغرجستان برسم اطاعت بخدمت اورسیدند ومورد مرحمت قرار گرفتند.

هولاکو در اواخر سال ۶۴۳ ازجیحون گذشت وازطریق بلخ وخاف بخراسان آمد ودر این تاریخ بود که امیرارغون دبیران وعمال زیردست خود رابهولاکومعرفی کرد تا همگی درخدمت خان باشند وازاین ببعد امر او را اجرا کنندویکی ازجملهٔ این دبیران عطاملك جوینی پسر بهاءالدین صاحبدیوان بود.

دررسیدن بطوس هولاکو ملك شمس الدین کرت را برسم رسالت پیش ناصر الدین محتشم قهستان فرستاد واو را بقبول فرمان خود خواند. ناصر الدین که در این تاریخ پیر مردی ضعیف بود بهمراهی ملك شمس الدین بحضور هولاکو رفت و تسلیم کردید. هولاکو نیزاورا محترم داشت وبحکومت شهر تون فرستاد. خواجه نصیرالدین طوسی کتاب معروف اخلاق ناصری را بنام اوتألیف کرده است.

تسخیر الموت وانقراض اسماعیلیه در ۶۵۴. کیتوبوقا در طوس بخدمت هولاکو رسیده احوال قلاع اسماعیلیه ورکن الدین خورشاه رابعرض اورسانیدوهولاکو شخصاً تصمیم گرفت که بقیهٔ آشیانه‌های فدائیان راهم مسخرسازدوبامطیع ساختن خورشاه بساط آن جماعت را برچیند. باین تصمیم بطرف خرقان وبسطام حرکت کردوازبسطام دونفر نماینده پیش خورشاه فرستاده‌او را بتسلیم خواند وازهیبت وشوکت خودترساند خورشاه بصوابدید خواجه نصیرالدین طوسی که در این موقع در میمون دز بودحاضر بقبول اطاعت شد و برادر خودرا با نماینده‌ای بخدمت هولاکوفرستاد. هولاکومقدم نمایندگان اسماعیلی را گرامی داشت وبخورشاه پیغام داد که اگر حقیقةً حاضرتسلیم است قلاع خود را خراب کند وشخصاً بخدمت هولاکو بشتابد. خورشاه امر داد که قسمتی از دیوار های قلاع لنبه سر ومیمون دز والموت را خراب کردند و برای آمدن بحضور هولاکو نیز یك سال مهلت خواست. چون هولاکو دانست که خورشاه راه طفره ونفاق میرود وباطناً قصد تسلیم شدن ندارد خود از طریق بسطام و کیتوبوقا از راه خوار و سمنان ودسته‌ای دیگر ازقشون او ازطرف مازندران بطرف قلاع اصلی ملاحده حرکت کردند وازطرفی برلار ودماوند دست یافتند واز طرفی دیگر داخل ولایت کوهستانی

رودبار شده بنزدیکی میمون دز رسیدند و هولاکو در اواخر رمضان ٦٥٤ بر معابر سخت بین رودبار و طالقان مستولی گردیده قلعهٔ میمون دز را که دورادور آن شش فرسنگ بود تحت محاصره گرفت ولی بزودی فهمید که تسخیر این قلعهٔ مستحکم کار آسانی نیست بخصوص که زمستان درپیش بود وتهیهٔ سیورسات بسهولت امکان نداشت هولاکو بار دیگر خورشاه را باطاعت خواند و چون خورشاه دید که دیگر مقاومت امکان ندارد ومحصورین میمون دز هم بیش از این برای ایستادگی حاضر نیستند پسر و برادرخودرا باخواجه نصیرالدین طوسی وپسران رئیس الدوله همدانی طبیب و موفق الدوله روانهٔ خدمت هولاکو کرد وخود نیز در تاریخ اول ذی‌القعده سال ٦٥٤ ازقلعه بزیرآمده درحضور هولاکو زمین خدمت بوسید ودورهٔ اقتدار ۱۷۷ سالهٔ اسماعیلیان به این ترتیب بانتها رسید.[1]

هولاکو با خورشاه باحترام تمام رفتار کرد وامر داد که کسان او قلعهٔ میمون دز را با قریب صد قلعهٔ دیگر از اسماعیلیان که در آن حوالی ودر قهستان بود خراب نمودند فقط ازاین میان سه حصار گرد کوه ولنبه سر والموت دست از مقاومت بر نداشتند. عاقبت گرد کوه بعداز بیست روز تسلیم شد ولنبه سر یکسال پایداری نمود ولی چون وبا در میان سکنهٔ آن بروز کرد مستحفظین تاب نیاورده بقبول اطاعت و گشودن درهای حصار ناچار شدند.

هولاکو قلاع عمدهٔ اسماعیلیه را که مرکزاجتماع ذخائر ونفایس اشیاء ایشان بود غارت کرد و گنجینه‌ها وآلات وادوات گرانبهای آنها را بین قشون خود تقسیم نمود وخورشاه را واداشت که بمستحفظ الموت ملقب بسپهسالار امر دهد تا سرتسلیم فرود آورد. خورشاه نیز چنین کرد ولی سپهسالار از قبول فرمان او سرپیچید عاقبت هولاکو قشونی فراوان بفتح آن مأمور ساخت و ایشان پس ازسه روز جنگ سخت الموت راهم مانند قلاع دیگر اسماعیلی مسخر کردند واین آخرین پناهگاه معتبر فدائیان که مرکز دولت وآشیانهٔ مهم ایشان محسوب می‌شد نیز بچنگ مغول افتاد.

مغول داخل آشیانهٔ اصلی حسن صباح و پیروان او شدند وآلات جنگی و

[1] ــ خواجه نصیرالدین درتاریخ این واقعه گفته :

سال عرب چو ششصد وپنجاه وچارشد | یك شنبه اول مه ذی القعده بامداد
خورشاه پادشاه سماعیلیان ز تخت | برخاست پیش تخت هولاکو بایستاد.

منجنیق ها را شکستند و اموال و خزاین ایشانرا بتاراج بردند مخصوصاً بر کتابخانهٔ بسیار نفیسی که اسماعیلیان درطی سالهای متمادی درالموت تأسیس کرده‌بودند و آوازهٔ اشتهار و اهمیت آن در عالم پیچیده بود دست یافتند و هولاکو امر بنابود کردن آن داد . عطاملك جوینی که در این سفر همراه بود از هولاکو اجازه گرفت که بمطالعهٔ آن کتب پردازد تا نفایس و کتب مفیدهٔ آنرا جدا کند و بقیه را که متعلق باصول و فروع دین اسماعیلی است بسوزاند و بهمین قصد قدم در کتابخانهٔ اسماعیلی گذاشته قرآنها و کتب نفیسه وآلات نجومی و رصدی اسماعیلیه را از آن میان استخراج‌نمود و بقیّه را تلف کرد و یکی از جملهٔ نفایس این کتاب تألیفی بود از اسماعیلیّه‌در‌تاریخ احوال حسن صباح وجانشینان او بنام سر گذشت سیّدنا که عطاملك آنرا ازنابودشدن نجات‌داده‌وخلاصهٔ آنرا درجلدسوّم جهانگشای جوینی گنجانده است‌ودرجامع‌التواریخ رشیدی نیز فصل مفصل‌تری از همان کتاب باقی است .

بعد از آنکه رکن‌الدّین خور شاه چند روزی در اردوی هولاکو ماند وازطرف اوبهمخوابگی با یکی‌ازشاهزاده خانمهای مغولی سرافراز گردید باستدعای‌خود روانهٔ خدمت منکوقاآن گردید ولی منکواورا بخدمت نپذیرفت‌وچون مردم گرد کوه‌هنوز کاملاً سر تسلیم پیش نیاورده بودند اورا باز گردانید تاآن قلعه راکاملاً باختیارهولاکو بگذارد و پیروان نافرمان خود را مطیع کند. خورشاه بطرف ایران بر گشت‌ودر کنار جیحون بدست همراهان مغولی خود بقتل رسید (۶۵۵).

هولاکو دو پسر خورشاه و خواهران و برادران و کسان اورا بین ابهر وقزوین کشت وامر داد که درهرجا ازایشان بر کسی دست یابند بقتل‌آورند. حکمران‌مغولی خراسان اسماعیلیّهٔ قهستانرا ببهانهٔ سرشماری احضار کرد ودریك‌نوبت بیش‌از۱۲۰۰۰ نفر ازآن جماعت را کشت ولی با تمام‌این‌احوال باز فدائیان اسماعیلی تا مدتهابعددر نقاط مختلفهٔ ایران وشام باقی بودند ودرعهد ابقا پسرهولاکو وجانشینان دیگر او باز چند بار برای سر کوبی بقیةالسیف ایشان لشکر کشی شد . عاقبت مغول در۶۵۸یکی ازقلاع مستحکم ایشانرا درشام بتصرف‌آوردند وممالك مصر در ۶۷۱ آشیانه‌های مهم ایشانرا درحدود شام ولبنان خراب کردند وفتنهٔ ملاحده خاموش شد .

فتح بغداد و انقراض خلافت عباسی از ۶۵۵ تا ۶۵۶

خلافت المستعصم بالله (۶۴۰ - ۶۵۶) - خلافت عباسی را از سال ۶۴۰ ببعد ابواحمد عَبدالله ملقب به المُستَعصِمُ بالله داشتو او که سی‌وهفتمین وآخرین خلیفه از خاندان عباسی است مردی بود متدین و نیکوکار وآرام‌طبع وعفیف وخوش‌اخلاق و کتاب‌دوست وخوش‌خط ولی بی‌عزم‌وسست‌رأی وبی‌اطلاع ازامور سیاست‌وملکداری هیچگاه ازحقایق مسائل مطلع نمیشد وهیچکس ازاو واهمه وهراسی در دل نداشت. اکثر ایام او بسماع اغانی وملاقات زنان ومردم مسخره میگذشت و یا روز کارخودرا بدون استفادهٔ صحیح در کتابخانه شخصی میگذرانید. با آنکه مغول در پشت دروازهٔ بغداد بود بجای تدبیرکار ایشان بسلاطین اطراف نامه مینوشت و از ایشان نوازنده و سازنده میخواست و فرومایگان را بزرگترین مشاغل درباری و دیوانی خود و ریاست وحکومت میداد. درباریان اوهمه از اراذل ناس بودند و بوجود خلیفه استیلائی کامل داشتند وجز مؤیدالدین محمدبن العلقمی وزیراوبقیه مردمی بیکفایت‌وسست‌عنصر و مغرض بودند و خلیفه بی‌تدبیر را بهر طرف که میل میکردند میکشیدند و اسباب ضعف کارها را فراهم میساختند.

عادت خلفای اخیر بنی‌عباس تا عهد المستنصر این بود که پسران خویش را از راه‌احتیاط حبس‌میکردند مستعصم این‌ترتیب را رعایت نکرد وسه پسرخودرا آزادنمود وپسربزرگتر او بشرحی که‌خواهیم دید ازضعف‌نفس پدراستفاده کردودربغدادمرتکب خرابکاریها و بی‌رحمیهائی شد که همانها نیز برافتادن خاندان عباسی کمك کرد.

ازابتدای‌خلافت مستعصم تا رسیدن هولاگو بحدود بغداد شانزده سال گذشتو بااینکه هرروز خبروصول عساکر مغول میرسید خلیفهٔ بیخبر عشرت‌پرست بهیچوجه درصدد چاره‌جوئی برنیامد و درباریان مغرض غافل بجای مآل اندیشی و تذکراحوال مسلمین‌خوارزم وایران وروم‌همه وقت اخباری‌را که میرسید درپیشگاه خلیفه‌بی‌اساس وخالی‌ازاهمیت و اعتبارجلوه میدادند وخلیفه هم درصدد نبود که با دامن همت بکمر زده با جمع کردن قشون و کمك گرفتن‌ازملوك اطراف بجلوگیری ازهولاگو بپردازد

و یا لااقل با فرستادن تحف وهدایا و قبول ایلی از پیشرفت مغول و عاقبتوخیمی که این کار دربر داشت جلوگیری نماید و هروقت که با او ازجلوآمدن مغول بطرفعراق گفتگومیکردند میگفت بغداد مرا کفایت میکند درصورتیکه من ازبلاد دیگر بگذرم مغول در بند گرفتن این شهر که منزل ومقام من است نخواهند بود.

در زمان خلافت مستعصم مغول چندبار بطرف عراق آمدند ولی تا اوایل سال ۶۵۶ هیچگاه موفق بدست یافتن بر بغداد نگردیدند و اول موقعیکه درعصر این خلیفه بجانب بغدادآمدند در اوایل سال ۶۴۳ بود ودر این تاریخ سلیمان بن پرچم سر کردهٔ ترکمانان ایوائی دربغداد نفوذکلی داشت وچون یک نفر دیگر ازسر کردگان همین طایفه باسم خلیل بن بدر از اطاعت خلیفه سرپیچید و بحدود جبال رفت سلیمانشاه بسر کوبی او شتافته خلیل را بقتل رساند و برادر خلیل و جماعتی از کردان با مغول همدست شده بطرف بغداد سرازیر گردیدند.

خلیفه امر داد که عساکر بغداد بر سبیل احتیاط در خارج دارالخلافه حاضر مقابله باشند ودرصورت پیش آمدن مخالفین جلوی ایشانرا بگیرند، مغول نیز بخیال اینکه عدهٔ عساکر خلیفه زیاد نیست بطرف بغداد بعجله پیش تاختند وخلیفه یکی از فرماندهان قشون خود یعنی شرف الدین اقبال شرابی را بجلوی ایشان فرستاد.

مغول در ربیع الآخر سال ۶۴۳ باطراف بغداد رسیدند و قشون خلیفه بسرداری شرف الدین اقبال شرابی وبکمک ودستور مؤیدالدین محمدبن احمدبن العلقمی وزیر مستعصم بجهاد با مغول مشغول شدند وچون مغول در خود تاب مقاومت ندیدند شبانه گریختند وبغداد دراین تاریخ از شر استیلای ایشان محفوظ ماند.

زمام امور کشوری ولشکری خلیفه دراین تاریخ دردست اشخاص ذیل بود: مؤیدبن العلقمی وزیر، شرف الدین اقبال شرابی ازفرماندهان قشون سلیمانشاه ترکمان سر کردهٔ طایفهٔ ایوائی مجاهدالدین ایبک دواندارصغیر وعلاءالدین آلتون برس دواتدار کبیر.

عساکرخلیفه دراین ایام منحصر بود به ۶۰۰۰۰ نفر که قسمت عمدهٔ ایشان در تحت امر سلیمانشاه بودند و اختیارکارهای خلافت در دست علاءالدین دواتدار کبیر و مجاهدالدین دواتدارصغیر و اقبال شرابی و ابن العلقمی وزیر بود ولی این امرا و وزرا چندان اخلاصی بخلیفه نداشتند و هر کدام بشکلی بخیال بر انداختن او بودند

بعلاوه با یکدیگر نیز دشمنی میکردند وهریك مصمم بر زمین‌زدن دیگری‌بودند، از این جماعت آنکه بیشتر طرف اعتماد خلیفهٔ ساده‌لوح شمرده میشد مجاهدالدین‌یعنی دواتدار صغیر بود . ازقضا اوجمعی از رنود و اوباش را دورخود جمع کرده ومصمم شد که المستعصم را خلع نموده دیگری‌را ازخاندان عباسی بجای او بنشاند. ابن‌العلقمی واقعه را بخلیفه گوشزد کرد ولی خلیفهٔ بیمغز بجای دفع دشمن اورا خواسته نصیحت داد و عفو نمود. دواتدار صغیر از ابن‌العلقمی پیش خلیفه بد گفت و از راه داشتن‌او با هولاکو شرحی تقریر کرد. عاقبت چون دواتدار ازخیال‌خود دست برنداشت‌وروزبروز برجمعیت‌واطرافیان‌اوافزوده میشد‌خلیفه‌بخیال‌دفع‌او افتاده وفتنه دربغدادظاهر گردید.

مردم بغداد که از شیعه و سنی و عیسوی مرکب بودند و برسر عقاید دینی با یکدیگر اختلافات دائمی داشتند در باب امور ملکی و سیاسی با هم اختلاف مسلك پیدا کردند وکار اینگونه مباینت‌ها بنزاع داخلی بین مردم بغداد کشید ، مخصوصاً چون اولیای امورملکی نیز با هم صفائی نداشتند‌آتش این دشمنیها را دامن میزدند. خلیفه‌هم ازبس ساده‌لوح وبی‌اراده بود بهمه بچشم نیك‌بینی‌وخدمتگزاری‌مینگریست وهر گونه اقدامی‌را که ازطرف هریك از وزراء وعمّال میشد بیشتر حمل بخیرخواهی و دولت‌دوستی او میکرد.

بعد از قیام دواتدار صغیر برخلیفه ، المستعصم بمدد صاحبدیوان خود فتنه را خواباند و بخط خویش مکتوبی بدواتدار نوشته اورا امان‌داد و گفت که‌آنچه‌درحق‌او بعرض رسانده‌اند افترا است بعد اورا بخدمت خود خوانده وخلعت داد واستمالت کرد.

مابین این دواتدار و وزیر خلیفه مؤیدالدین بن‌العلقمی چنانکه پیش‌هم گفتیم سابقهٔ دشمنی وجود داشت وغالباً این دونفر از یکدیگر نزد خلیفه سعایت‌میکردند.

دراواخرعهد المستعصم یعنی درسال ۶۵۰ دربغداد بین شیعه وسنی جنگ‌بروز کرد. خلیفه پسربزرگ‌خود ابوبکر را مأموردفع فتنه‌نمود وابوبکرسکنهٔ‌شیعی‌مذهب محلهٔ کرخ بغداد ومشهد امام موسی بن جعفر را بباد غارت داده مرتکب فجایع کثیر شد وقتل وغارت وفحشا را ازحد گذراند.

این کیفیت عموم شیعی مذهبان بغداد را بشدت ازخلیفه و بنی‌عباس متنفر کرد و مؤیدالدین‌بن‌العلقمی نیز که شیعه بود ازاین واقعه ملول ومتألم شد.

درموقعیکه حال بغداد این بود هولاکو ازعراق با قشونی فراوان بهمدان آمد و دراین سفر بدرالدّین لؤلؤ (۶۱۶ - ۶۵۷) صاحب موصل و اتابك ابوبکر بن سعد اتابك فارس و خواجه نصیرالدین طوسی وعطاملك جوینی و دوپسر رئیس الدوله طبیب همدانی نیز با او بودند.

خان مغول قریب ده ماه درهمدان وحدود کرمانشاه مقیم ماندودربدو ورود بایجو را احضار کرده بار دیگر ببلاد روم فرستاد وخود دراین ضمن بتهیهٔ سپاه مشغول گردید. درموقع اقامت هولاکو درهمدان بین او وخلیفه چندبار سفرا آمد و شد کردند و در تمام این مدت دشمنی دیرینهٔ ابن العلقمی و مجاهدالدین دواتدار کوچك با یکدیگر وبیخردی خلیفه نگذاشت که با فرستادن تحف وهدایا وقبول فرمان مغول راه وصول ایشان بعراق سد گردد وآخرین پناه گاه علم وادب در مشرق اسلامی بدست آن قوم وحشی زیروزبر نشود.

هولاکو در دهم رمضان سال ۶۵۵ از همدان ایلچیانی پیش خلیفه روانه کرد واز او تقاضای قبول ایلی نمود و خواست که خلیفه شخصاً بخدمت او بیاید واگراین کار میسر نشود سلیمانشاه وابن العلقمی و دواتدار کوچك را برای رساندن پیغامهای هولاکو پیش اوبفرستد. خلیفه دونفرفرستاده که یکی از ایشان شرف الدّین عبدالله بن الجوزی[1] بود بهمدان روانه کرد واورا ازقدرت خود ترسانده امر بمراجعت بخراسان داد هولاکو ازاین حرکت سفیهانهٔ خلیفه درخشم شد وچون مردم بغداد باسفرای او بزشتی رفتار کرده بودندسفرای خلیفه رابر گرداند وباردیگر اورا بقبول فرمان مغول نصیحت داد. /

بعداز مراجعت فرستادگان خلیفه، ابن العلقمی چنین مصلحت دید که تحف و هدایائی فراوان از بغداد جهت هولاکو فرستاده شود و خطبه و سکه بنام او جاری گردد تامگرچارهٔ این بلیه به این شکل ساخته آیدوهولاکوازخیال تسخیر بغدادانصراف حاصل کند. خلیفه تدبیر ورأی او را پذیرفت و قرار تهیه پیشکش و تقدیمی داده

۱ - این شخص پسر محی الدین ابو محمدیوسف (۵۸۰-۶۵۶) ونوادهٔ ابوالفرج جمال الدین عبدالرحمن ابن الجوزی (۵۱۰-۵۹۷) عالم و واعظ معروف است و پدر او یعنی محی الدین مدرس مدرسهٔ مستنصریهٔ بغداد و رئیس دربار مستعصم بود ودرفتح بغداد بقتل رسید.

شد ولی مجاهدالدّین دواتدار ولشکریان تابع اوباین خیال مخالفت کردند و بخلیفه گفتند که ابن‌العلقمی جهت خود شیرینی پیش‌هولاکو باین کار اقدام می کندوغرض او این است که لشکر را در رنج و محنت نگاه دارد . خلیفه بتهدید ایشان از ترتیب هدایا و ارسال آن خودداری نمود وباصرار سلیمانشاه بتجهیز لشکرپرداخت ولی‌چون از دادن پول بایشان اباکردکار عرض لشکرنیز چنانکه باید ساخته نشدوعاقبت‌خلیفه از راه اضطرار هدایائی بخدمت هولاکو روانه داشت و در ضمن شرحی بـاو از سوء عاقبت کسانی که بربنی عباس شوریده‌اند پیغام داد و وخامت سرانجام یعقوب‌بن‌لیث صفاری و برادرش عمرو وسلطان محمد سلجوقی و سلطان محمد خوارزمشاه را بچشم او کشید بتصوّراینکه‌این بیانات‌پوچ‌هولاکورا مرعوب‌میسازدوازنیمه‌راه‌برمی گرداند و خلیفهٔ راحت دوست را فارغ البال بسماع خوش اغانی و مطالعهٔ کتب و خلطه و آمیزش با زنان ومسخرگان آسوده می گذارد در صورتیکه بر خلاف این پیغامهای کودکانه بیشتر برمراتب غیظ وغضب هولاکو افزود و اورا بیش از پیش عازم حرکت بطرف بغداد نمود .

فتح بغداد ـ در حرکت بسمت بغداد هولاکو ابتدا ایلات و امرای ساکن سرحدی کوهستانهای عراق را بدادن‌مال‌وبخشیدن‌حکومت باخود همدست کردوبیشتر کردان‌تابع‌سلیمانشاه راتحت‌امرخودآوردوپس‌دستورداد که‌لشکریان‌جرماغون‌وبایجو ازطرف بلاد روم بسمت اربل و موصل پیش آمده از سمت مغرب‌بغداد را در محاصره بگیرند ومنتظر باشند تالشکر هولاکو نیز ازجانب مشرق بآن‌شهر برسند .

هولاکو چند نفر از شاهزادگان مغول را بهمراهی سونجاق نویان[1] از راه کردستان حالیّه و کیتوبوقا و چند سردار دیگر را از راه لرستان و خوزستان‌بطرف بغداد مأمور کرد وخود در اوایل ذی‌الحجهٔ سال ۶۵۵ از راه کرمانشاه وحلوان‌عازم آن‌صوب گردید ودراین‌سفر امیرارغون‌وخواجه‌نصرالدین‌طوسی وسیف‌الدّین بیتکچی وزیر وعلاءالدّین عطا ملك جوینی همراه او بودند .

هولاکو یکمرتبهٔ دیگر از اسدآباد همدان بمستعصم پیغام فرستاده اورابحضور طلبید . خلیفه شرف‌الدین بن الجوزی را پیش او فرستاد و بازهمان وعد و وعیدهای

۱ ـ یا سُوغُنْجاق نُویانْ .

سابق را تجدید کرد وازهولاکو خواست که از راه باز گردد و لشکریان خودرا متفرق سازد، آنگاه هرمبلغی که مقرر نماید خلیفه سالیانه بحضوراو بفرستد. هولاکو زیربار این تکلیف که بوی نفاق از آن می آمد نرفت واز کرمانشاه گذشته داخل عراق گردید.

دراین تاریخ سونجاق و بایجو نیز بحدود بغداد رسیده و پس از شکست دادن طلیعهٔ قشون خلیفه از دجله گذشته بودند و کیتوبوقا نیز بلاد لرستان را گشوده و از جانب جنوب بعراق وارد شده بود.

قسمتی ازقشون خلیفه بسر کردگی مجاهدالدین آیبیك دواتدار کوچك در بعقوبا اردو زده بودند وهمینکه شنیدند که لشکریان سونجاق وبایجو ازدجله گذشته وبقسمت غربی بغداد رسیده اند عقب نشسته بحدود انبار و نه فرسخی دارالخلافه آمدند وباسپاهیان سونجاق زدوخورد کرده ایشانرا منهزم نمودند ولی درجنگ با لشکریان بایجو سخت شکست یافته ۱۲۰۰۰ نفر از ایشان بقتل رسیدند ومجاهدالدین دواتدار بـا قلیلی از همراهان گریخته ببغداد آمد و بایجو و سونجاق درسه شنبهٔ ۱۵ محرم ۶۵۶ ازطرف غربی شهر را درحصار گرفتند و کیتوبوقا نیزازطرف دیگر . هولاکوهم دریازدهم محرم بجانب شرقی پای تخت عباسیان نزول کرد وشهر را از آن طرف محصور نمودومغول از اطراف بغداد را درزیر باران سنگ ونفط وآتش گرفتند وچون در حدود بغداد سنگ نبود یا از جبال حمرین وجلولا سنگ حمل میکردند ویادرختان خرما را ازبیخ کنده با عراده بداخل شهر می انداختند .

محاصرهٔ بغداد از سه شنبهٔ ۲۲ محرم ۶۵۶ شروع شد وتا آخر این ماه طـول کشید. در این مدت مغول شهر را قدم بقدم خراب میکردند وبرجها را میگشودند و پیش میآمدند. خلیفه چون دید کاری ازپیش نمیرود چند بار بافرستادن رسول وتحفه سعی کرد هولاکو را باز گرداند ولی او دراین موقع دیگر استدعای خلیفهٔ بی تدبیر را نپذیرفت وخواجه نصیرالدین را باحضار سلیمانشاه ودواتدار پیش مستعصم فرستاد وخلیفه ازراه اضطرار هردورا روانهٔ خدمت هولاکو کرد ولی هولاکو ایشانرا بهبیرون آوردن متعلقان خود ببغداد باز گردانید تا آن جمع را بعنوان حشر روانهٔ مصر وشام

نماید. لشکریان بغداد و جمع کثیری از مردم شهر بخیال آنکه نجات یابند بهمراهی دواتدار وسلیمانشاه از بغداد خارج شدند وپیش هولاکو آمدند. خان سفاك مغول همگی ایشانرا بقتل رساند و دواتدار وسلیمانشاه وپسر او را نیز چند روز بعد کشت و سر ایشانرا بدست پسر بدرالدین لؤلؤ به موصل پیش او فرستاد وبدرالدین با اینکه با سلیمانشاه دوست بود از ترس هولاکو اشك ریزان سر آن سه تن را بردار کرد.

مستعصم روز یکشنبه ٤ صفر ٦٥٦ با سه پسر خود و سه هزار نفر از سادات و ائمه وقضاة واکابر واعیان بغداد از شهر خارج شده بخدمت هولاکو رسید وهولاکو بظاهر با او بنرمی سخن گفت وخلیفه را امر داد تا بقیة السیف مردم دارالخلافه را از استعمال اسلحه و جهاد با تاتار باز دارد. خلیفه نیز چنین کرد و مردم دست از جهاد برداشتند هولاکو ایشانرا ببهانهٔ سرشماری بخارج بغداد کوچاند همگی را کشت و حکم داد از چهارم صفر بغداد را غارت کنند و در نهم صفر ببغداد وارد شد و مستعصم بدست خویش کلید خزائن پانصد سالهٔ اجدادی را در کف او نهاد و دفاین خویش را باو نمود.

«چون خلیفه نزد هولاکو رسید خواص او را از ائمه و سادات و مشایخ بدروازهٔ کلواذ فرود آوردند وبعد از آن فرمود تا شهر را غارت کردند وپادشاه بمطالعهٔ خانهٔ خلیفه رفت وبهمه روی بگردید وخلیفه را حاضر کردند. خلیفه را فرمود تا پیشکشها کرد آنچه آورد پادشاه هم درحال بخواص وامراء و لشکریان و حاضران ایثار کرد و طبقی زر پیش خلیفه بنهاد که بخور گفت نمیتوان خورد گفت پس چرا نگهداشتی وبلشکریان ندادی واین درهای آهنین را چرا پیکان نساختی وبکنار جیحون نیامدی تا من از آب نتوانستمی گذشت. خلیفه بجواب گفت تقدیر خدای چنین بود. پادشاه گفت آنچه بر تو خواهد رفت هم تقدیر خداست و شب را بازگشت آنکه خلیفه را فرمود که زنانی که با او و پسران او پیوسته‌اند بیرون آورد و بسرای خلیفه رفتند ۷۰۰ زن و ۱۳۰۰ خادم بودند و دیگران را متفرق کردند. چون از غارت فارغ شدند بعد از یك هفته اهل شهر را امان دادند و غنیمتها جمع کردند وچهاردهم صفر پادشاه از در شهر کوچ فرموده خلیفه را طلب کرد واو را آنجا آوردند وپسر میانین را برعقب آوردند با پنج شش خادم. آن روز درآن دیه کار او بآخر رسید دیگر روز پسر مهین را و کسانی را که با او بودند بدروازهٔ کلواذ کار او بآخر رسید و زنان و خادمان را متفرق کردند.»

(نقل از رسالهٔ کوچك فتح بغداد منسوب بخواجه نصیرالدین طوسی.)

در هجوم مغول ببغداد بیشتر ابنیه وعمارات آن از قبیل مقابر خلفا و مشهد امام موسی کاظم خراب گردید و خلق بسیار بقتل رسیدند. عاقبت بعد از یك هفته

هولاکو امر داد که از قتل وغارت آن شهر دست برداشتند وچون هـوای آن بد بود روز ۲٤ صفر از بغداد خارج شد ومستعصم را بحضور طلبیده و او را در همان روز بـا پسر بزرگتر ابوبکر بقتل رساند و پسر میانهٔ او را نیز چند روز بعـد کشتند و از بنی عباس برهر کس دست یافتند بقتل آوردند مگر پسر کوچکتر خلیفه مبارکشاه که اورا هولاکو بزوجهٔ خویش بخشید وزوجهٔ هولاکو اورا بخواجه نصیرالدین سپرد وخانمی مغولی باو دادند وباین ترتیب دولت پانصد وبیست و پنج سالهٔ عباسی برافتاد و دستگاه خلافت بکلی از میان رفت. عددمقتولین بغداددرا بالغ بر ۸۰۰۰۰۰ نفر نوشته‌اند.

بعداز قتل خلیفه هولاکو ابن العلقمی را همچنان بعنوان وزارت ببغدادفرستاد وجهت آن شهر شحنه‌ای مغولی تعیین کرد وایشان بآبادی شهر و ترمیم خرابیها و کفن و دفن کشتگان مشغول شدند و هولاکو کمی بعد بسمت خانقین رجعت نمود ولی سرداران اوحله و کوفه ونجف را گرفتند وچون مردم واسط مقاومت کردندمغول قریب ٤۰،۰۰۰ نفر از ایشان را کشته برآنجا استیلا یافتند وبطرف شوشتروبلاددیگر خوزستان سرازیر گردیدند.

ابن العلقمی وزیر (متوفی ٦٥٦) - وزارت خلیفه المستعصم بالله چنانـکه دیدیم با مؤید الدین ابوطالب محمد بن احمد بن العلقمی بودواین شخص که تافتح بغداد وزارت خلیفه را داشت از اجلهٔ فضلای عصر خویش بشمار می‌رفت، درحسن خط وکمال ونظم شعر وانشا مشهور بودفضلا واهل ادب را دوست میداشت ودرجمع کتب وجلب ادبا وشعرا سعی مخصوص میکرد، کتابخانه‌ای داشت متضمن ۱۰۰۰۰ مجلد کتاب خطی نفیس وشعرا ونویسندگانی در گرداوبودند که بنامش شعرمیساختندو کتاب مینوشتند و یکی ازمشهورترین این جماعت عزالدین عبدالحمید ابن ابی الحدید (۵۸٦-٦۵۵) فاضل معروف است کـه کتاب شرح نهج البلاغه را بنام این وزیر دانش دوست برشتهٔ تألیف آورده است.

ابن العلقمی در کفایت وکاردانی نیز مقامی بلند داشت وزمـام عموم کار هـای خلافت در دست او بـود، خلیفه نیز او را معتمد خود میدانست ولی از آنجا کـه ضعیف النفس و بی اراده بود بهرحرکتی که ازدیگران سر میزد رضا میداد مخصوصاً

چون خواص دیگر خلیفه با ابن العلقمی دشمنی می کردند نمی‌توانست از سعایت آنها جلوگیری نماید وغالباً آلت اجرای اغراض این و آن میشد.

در خصوص دخالتی که این وزیر در امر حصار بغداد و قتل خلیفه المستعصم داشته مورخین بیاناتی متضاد کرده‌اند و بهمین جهت حقیقت مسئله چندان روشن نیست غالب مورخین اسلامی مخصوصاً سنی مذهبان که از واقعهٔ قتل خلیفه وانقراض خاندان بنی عباس سخت متغیر و متأسف بوده‌اند چنین نقل می کنند که ابن العلقمی بعلت شیعه بودن بر اثر تألمی که از قتل و غارت محلهٔ کرخ بغداد ومشهد امام موسی بدست ابوبکر پسر خلیفه پیدا کرده بود کینهٔ بنی عباس را در دل گرفته مصمم شد بهر وسیله باشد هولاکو را بر بغداد مستولی کند و بنیاد آل عباس را براندازد و باین قصد پنهان از خلیفه مکرر رسولانی پیش هولاکو و خواجه نصیرالدین طوسی فرستاد واحوال ضعف خلیفه و سهولت تسخیر بغداد را بایشان گوشزد کرد و در ضمن قشون خلیفه را باطراف و دهات متفرق نمود و باو گفت که با هولاکو قرار صلح نهاده شده دیگر بلشکر احتیاجی نیست حتی این مورخین نوشته‌اند که درموقع زد وخورد مردم بغداد بالشکریان مغول در اطراف آن شهر ابن العلقمی امر داد که سد یکی از نهرهای بیرون بغداد را گشودند وجماعتی ازلشکر خلیفه باین ترتیب در آب غرق شدند.

اما مورخین شیعی مذهب برخلاف ساحت ابن العلقمی وزیر را از این اتهامات بری میدانند و تمام این پیش آمدهای ناگوار را نتیجه سستی عزم و ضعف خلیفه و ظلم و جور پسرش ابوبکر و نفاق امرا وسران لشکری بایکدیگر می‌دانند مخصوصاً محمدبن علی بن طباطبا مؤلف کتاب الفخری که آنرا در سال ۷۰۱ یعنی چهل و پنج سال بعد ازفتح بغداد بدست هولاکو نوشته شدیداً اینگونه نسبتها را که عامه بابن العلقمی می‌داده‌اند رد می کند ودرستی وامانت ودیانت آن وزیر را می‌ستاید و شرح ذیل را از قول خواهرزادهٔ ابن العلقمی که برای او تقریر کرده نقل مینماید:

« کمال الدین احمد بن الضحاك خواهرزادهٔ ابن العلقمی بمن گفت که چون هولاکو بحدود بغداد رسید از خلیفه خواست که وزیر خود را پیش اوبفرستد. خلیفه ابن العلقمی را احضار کرد وباو گفت که هولاکو ترا خواسته است ومن که خواهر-زادهٔ اویم در آنجا حاضر بودم. وزیر خلیفه را مخاطب ساخته گفت: اگر من از

شهر خارج شوم تدبیرکار دارالخلافه را که عهده‌دار خواهد شد. خلیفه گفت چاره‌ای نیست باید رفت . وزیر اطاعت کرده بخدمت هولاکو رسید وخواجهٔ سعید نصیرالدّین طوسی او را چنانکه باید در پیشگاه هولاکو معرفی نمود . هولاکورا از وزیر خوش آمد و چون بغداد را تسخیر کردآن شهر را باو سپرد ولی ابن‌العلقمی کمی‌بعد مریض شده درجمادی‌الاولی‌سال ٦٥٦ وفات‌یافت . اگراین وزیر خیانت پیشه ونسبت‌بخلیفه راه کفران رفته بودهر گز هولاکو باو وثوق نمیکرد و بغداد راباو وانمی گذاشت . »

با تمام این مراتب نمیتوان گفت کـه ابن العلقمی چنانکه ابن طقطقی مدّعی است در پیشرفت‌کار هولاکو و برانداختن خاندان عباسی دخالتی نداشته چه اگرتمام نسبت‌هائی را که مورخین سنی مذهب بابن العلقمی داده‌اند صحیح نشماریم و اکثر آنها را ازسرسوز وازراه اظهار تعلق بخاندان خلفا بدانیم بازاین نکته قابل دقت‌است که‌ابن‌العلقمی ایرانی و شیعی مذهب علاوه بر کینهٔ قلبی نسبت بخلفای عباسی واهل تسنن ، از قضیهٔ غارت کرخ و مشهد امام موسی کاظم و قتل شیعیان بغداد سخت متألم بوده و با عمال وامرای بی‌لیاقت خلیفه دشمنی سیاسی داشته و از خود خلیفهٔ نا لایق ضعیف‌النفس هم هیچگونه توجه و اظهار علاقه نسبت بکارها نمیدیده است . مخصوصاً دوستی‌با خواجه نصیرالدین و پیروی‌ازطریقه‌ای که‌آن‌مرد دانشمند درترک‌اسماعیلیه و تقویت مرام هولاکو ، از راه مصلحت اندیشی و دنیاداری یا ازترس جان،اتخاذ کرده بوده شاید دراین راه مؤیّد وزیر خلیفه نیز شده باشد .آنجا که پای تعصب مذهبی در کار باشد اقدام باینگونه عملیات و بر انداختن دشمن دینی پیش چشم مـرد متعصب هیچگونه وقع وعظم ندارد بلکه مبادرت بآن در حکم ادای وظیفهٔ ایمانی و تکلیف مذهبی است، سفر پر خـوف و خطر قـاضی شمس‌الدّین قزوینی بدربار خان مغول و سفرای پاپ و لوئی نهم و پـادشاهان ارمنستان همه در نتیجهٔ همین تحریـک حس ضدیت و بعقیدهٔ اقدام کنندگان برای تحصیل اجر اخروی و در راه خـدمت بدین و عقیدهٔ قلبی بوده است وکسی که باین گونه کارها دست میزده بهیچوجه خود را پیش نفس خویش خجل نمیدانسته و ایـن عمل را خیانت تصور نمیکرده است چنانکه در موقع فتح بغداد عیسویان آن شهر برغم خلیفه و مسلمین دارالخلافه از پیشرفت

هولاکو و مغول شاد بودند و از ایشان تقویت میکردند تا مگر باین وسیله انتقام لشکر-کشی‌های سلطان جلال‌الدّین منکبرنی را بگرجستان و کشتار سلاطین ایّـوبی را از صلیبیون در شام و مصر بکشند.

بعضی ازمورخین لشکر کشی هولاکو را بتحریك ایرانی‌ها میدانندومیگویند که این قوم که هنوز دشمنی خود را نسبت بعرب، خراب کنندهٔ مجد وعظمت‌ایران قدیم و براندازهٔ دولت ساسانی، فراموش نکرده بودند مغول را ببغداد کشیدند تا آخرین اثری را هم که از دولت عرب در مشرق زمین بجا بود از میان بردارند. حتی گفته‌اند که بعضی از ایشان مغول را واداشتند که کتب خلفا را بانتقام کتبی که‌عرب‌بعد فتح مداین در دجله ریخته بودند بان شط بریزند. صحت وسقم این خبر درست‌معلوم نیست ونمیدانیم که این فقره نیز از نسبت‌هائی است که اهل تسنن بایرانی‌های شیعه بسته ویا واقعاً ایرانی‌ها در آن تاریخ دراین‌عمل دخالتی داشته‌اند.

باری دخالت ابن‌العلقمی درشکست‌کارخلیفه وپیشرفت هولاکو بهیچوجه‌روشن نیست همانطورکه نمی‌توان تمام گفته‌های اهل غرض را حمل بصحت کرد قطعاً هم نمی‌شود گفت کـه این وزیر درقضیهٔ مزبور مداخله‌ای نداشته است. تفاوت مطلب در اینجاست که مورخین سنی مذهب این عمل را درصورت وقوع خیانت عظیم می‌شمرده و ابن‌العلقمی وامثال او (قاضی شمس‌الدّین قزوینی) برخلاف نجات ازدست‌معاندین مذهبی را ولو بدست کفار میسرشود علاوه‌بر تشفی قلب صواب می‌پنداشته‌اند حل‌این مسئله بیشترموقوف بتحقیق صحیح اوضاع آنوقت بغداد وتحصیل اطلاع کامل‌ازاحوال مردمیست که‌در آن ایام تحت حکومت خلیفه‌وعمال ظالم‌طمع‌ورز او زندگی‌میکردماند.

اثرات فتح بغداد ـ فتح بغداد و انقراض خلافت پانصد سالهٔ بنی‌عباس‌یکی از بزرگترین وقایع تاریخ اسلام است و اگرچه بعد ازاستقرار مغول در ممالك اسلامی شرق و تجزیهٔ دولت عباسی دیگر چندان محلی بدست خلفا نمانده بود و خلیفه نفوذ سیاسی مهمی نداشت ولی چون اکثریت مردم ممالك اسلامی خلیفه را امیرالمؤمنین واولوالامر میدانستند نفوذ روحانی او کماکان بر قرار بود ومسلمین حتی‌درزیراطاعت مغول‌هم هر وقت مانعی پیدا نمی‌شد بنام او خطبه می‌خواندند و او را بر خود رئیس

روحانی و در دنیا جانشین پیغمبر میدانستند. مخالفت خلیفه با سلطان محمد خوارزمشاه و پدر او با وجود کمال قدرت این سلاطین و طرفداری از خلیفهٔ عباسی فهماند که هنوز مردم ممالک اسلامی بغداد را بنظر احترام مینگرند وخلیفه را قابل تعرض و تغییر وتبدیل نمیدانند. در موقع حرکت هولاکو بطرف بغداد نیز یکی از منجمین که در رکاب او بود خان مغول را از حرکت بسمت دارالخلافه نهی کرد و گفت که قصد خاندان عباسی مبارک نیست و او را از عواقب وخیم این کار ترساندولی هولاکو بتصویب خواجه نصیرالدین و کسان دیگری که دستخوش این اندیشه‌ها نبودند بگفتار آن منجم گوش نداد و بغداد را بدون آنکه فساد ظاهر شود گرفت.

تسخیر بغداد بتوسط هولاکو وقتل خلیفهٔ مسلمین بدست کفار مغول، مسلمانان عموم بلاد مخصوصاً اهل تسنن را سخت متألم کرد چنانکه آنرا اعظم وقایع عالم و بمنزلهٔ بزرگترین لطماتی میدانستند که ازطرف اهل کفر وشرك بمقام مقدس خلافت و بخاندان آل رسول وارد آمده. شیخ سعدی که دراین تاریخ درشیراز یعنی دور از معرکهٔ بلا و در سرزمین آرام می‌زیسته در مقابل شنیدن این واقعهٔ عظیم از اظهار تأثر خودداری نتوانسته وقصیده بزرگی درمرثیهٔ مستعصم وتأسف بر زوال دولت‌عباسی سروده است بمطلع ذیل:

آسمانرا حق بود گرخون ببارد برزمین بر زوال ملك مستعصم امیرالمؤمنین

اثر دیگرفتح بغداد و کشته‌شدن مستعصم و کسان او درنظر اهل تسنن برافتادن خلافت و خالی ماندن زمین بود از وجود یك نفر اولوالامر واین مسئله اگرچه‌برای شیعه که درمقابل مسلمین دیگر عده‌ای قلیل بیش نبودند اهمیتی نداشت ولی برسایر مسلمانان سخت ناگوار بود وهمین قضیه بشرحیکه بعدها خواهیم دید بهانه‌ای بدست ترکان عثمانی داد که موضوع خلافت را دوباره پیش بکشند وخود را امیرالمؤمنین و جانشین خلفای عباسی بخوانند و پیش‌آمد این ترتیب یکی ازمهمترین قضایائی است که درتاریخ دورهٔ جدید ایران باید محل توجه قراربگیرد.

اختیار مراغه پایتختی و بنای رصدخانه ــ بعد از تسخیر بغداد هولاکو اموال خطیری را که ازغارت‌خزاین خلفای‌عباسی بچنگ آورده بود باانضمام‌غنایم گرجستان

وارمنستان و بلاد روم و لر و کرد بآذربایجان فرستاد و امر داد که در یکی از جزایر داخلی دریای کبودان (دریاچهٔ اورمیه) واقع مابین شهر سلماس و اورمیه عمارتی عالی ساختند واز آنها آلت زرینه وسیمینه راآب کرده بشکل شمش در آنجا قرارداد واین جزیره ازقراریکه بعضی ازمورخین نوشته‌اند درسال مرگ ابقاخان یعنی درسنهٔ ۶۸۱ درآب فرورفت.

چون همواره روابط بین هولاکو و برادرش منکوقاآن بر قاعدهٔ دوستی و وفاق مبتنی بود هولاکو مقداری از غنایمی را که در بغداد بچنگ آورده بود با خبر فتح ایران وعراق وتصمیم توجه بطرف مصر و شام را پیش برادر فرستاد و رعایت جانب احترام اورا باین وسیله ملحوظ داشت.

در مدت اقامت هولاکو درحدود آذربایجان ومراغه عده‌ای از امرا وسلاطین اطراف بتهنیت فتح بغداد بخدمت او رسیدند و از آن جمله بودند بدرالدین لؤلؤ صاحب موصل و اتابک سعد پسر اتابک ابوبکربن سعد سلغری و سلطان عزالدین پادشاه سلجوقی روم و برادرش رکن‌الدین.

هولاکو مراغه را مقر اقامت خود قرارداد وعلت این مسئله گویا علاوه برسلامت آب وهوای آن شهر نظری بود که او بفتح شام ومصر داشت و خواجه نصیرالدین طوسی را امر داد که در آن شهر درمحل مناسبی رصدخانه‌ای بنا نماید.

رشیدالدین فضل‌الله مؤلف جامع‌التواریخ رشیدی میگوید که منکوقاآن درموقع فرستادن هولاکو بسمت ایران چون آوازهٔ فضل واستادی خواجه نصیرالدین راشنیده بود از او خواست که بعد از استخلاص قلاع ملاحده خواجه را بدربار او روانه دارد تا درمغولستان بنای رصدخانه کند ولی چون منکودراین تاریخ بفتح چین جنوبی اشتغال داشت هولاکو چنین صلاح دید که این کار درایران وبفرمان اوصورت پذیرد.

خواجه نصیرالدین بهولاکو فهماند که بنای رصد جدید و نوشتن زیجی تازه قریب سی‌سال مدت لازم دارد ولی هولاکو چون در این کار اصرار داشت از خواجه خواست که آنرا درمدت دوازده سال بانجام رساند و چون در این مدت رصد جمیع کواکب و حساب دورهٔ آنها و تهیهٔ جداول تازه امکان نداشت خواجه بدستیاری

جداول و زیج های سابق و رصدخانهای تازه در سال ۶۵۷ شروع بترتیب زیج جدید کرد و اینکار غیر از منجمین وعلمای بزرگ اسلامی که مخصوص اینکار از اطراف احضار شده بودند یك نفر از علمای نجوم چینی نیز در مراغه حضور داشت و او در ترتیب تاریخ چینی و طریقهٔ محاسبهٔ معمول آن قوم بمنجمین اسلامی کمك می کرد.

محلی که برای رصد خانه اختیار شد در شمال مراغه بر روی تپه ای بود و بامر هولاکو عموم آلات رصدی لازم را که در بغداد وغیره مغول بغارت گرفته بودند در آنجا باختیار خواجه نصیرالدّین گذاشتند بعلاوه هولاکو امرداد که جمیع اوقاف ممالك مغول را تحت اختیار خواجه قراردهند.

رصد مراغه قریب پانزده سال طول کشید ونتیجهٔ آنرا خواجه نصیر الدین در کتابی باسم زیج ایلخانی در سال ۶۶۳ یعنی درایام ابقاخان منتشر ساخت.

منجمینی که درکاررصد مراغه با خواجه نصیرالدین کمك می کردند عبارتنداز علّامه قطب الدّین شیرازی، مؤیدالدّین عرضی دمشقی، محی الدّین مغربی، فخرالدّین مراغی، فخرالدّین اخلاطی، نجم الدّین دبیران کاتبی قزوینی. بنای رصدخانهٔ مراغه قریب ۲۰۰۰۰ دینار خرج برداشت وبعد ازابقا بتدریج متروك ماند و امروز جزخرابه‌ای ازآن‌چیزی دیگر بجانیست.

لشکر کشی هولاکو بالجزیره وشام ـ هولاکودرموقعیکه‌بفتح بغداداشتغال داشت‌یکی‌ازسران‌سپاهی خودرابنام ارقیو نویان بطرف اربل فرستادتاحصارمستحکم آنرا مسخر نماید وآن قلعه در دست جماعتی از کردان بود. ارقیو مدتی در پای آن قلعه مستأصل ماند و بگشودن آن موفق نیامد تا آنکه بکمك لشکری و فکری بدرالدّین‌لؤلؤ آنجا را گشود وباروی‌آنرا خراب کرده عازم حدودشام شد.

شام و الجزیره در این تاریخ در دست سلاطین ایّوبی بود و شش شعبه از آن خاندان در میّافارقین وحصن کیفا و کرك و حلب و حماة وحمص سلطنت می کردند اما بدبختانه ما بین ایشان پیوسته نفاق و خصومت حکمفرما بود و اگر حقیقةً با یکدیگر اتحاد داشتند بخوبی می‌توانستند ازلشکریان هولاکوجلو گیری کنند.

ازمیان این‌سلاطین صاحب حلب یعنی **الملك‌الناصر یوسف** (۶۴۰ـ۶۵۹) از

همه مقتدرتر محسوب می‌شد و او پس از فتح بغداد یعنی درسال ۶۵۶ ازراه مصلحت‌اندیشی تحف و هدایائی با پسر و وزیر خود پیش هولاکو فرستاد و اظهار تبعیّت و انقیاد کرد واین حرکت الملك النّاصر که نشانهٔ کمال ضعف وعجز او در مقابل مغول بود بر سلاطین ایّوبی دیگر ناگوار آمد و این سلاطین کمر دشمنی او را بستند و در صدد دفع او بر آمدند و الملك النّاصر چاره‌ای ندید جز آنکه از هولاکو کمك بطلبد و این قضیه هولاکو را پیش از پیش در حرکت بطرف شام ساعی کرد. قبل از حرکت بحدود شام هولاکو ایلچیانی چند پیش بدرالدّین لؤلؤ بشهر موصل فرستاد و پیغام داد که چون تو مسنّی پسر خود الملك الصّالح را بفرست تا در فتح شام ومصر با لشکریان تاتار همراهی نماید. بدرالدین نیز اطاعت کرد وهولاکو بپاس این خدمت تُرکان خاتون دختر سلطان جلال الدین منکبرنی را بزوجیت بالملك الصالح داد سپس در رمضان سال ۶۵۷ بمعیّت بایجو و سونجاق و سرداران دیگر خود بطرف دریاچهٔ وان (بحیرهٔ خلاط) روبشام حرکت کرد و پسر خود یشموت را باسوتتای نویان بمحاصرهٔ میافارقین [illegible] (دیاربکر) فرستاد و خود شهر رها و نصیبین را گرفته و پس از عبور از فرات بمحاصرهٔ حلب پرداخت وهریك ازسرداران خود را مأمور یکی از دروازه‌های آن شهر کرد.

مردم حلب مقاومت کردند ولی هولاکو بهمراهی کیتوبوقا و ارقیونویان و سونجاق پس از یك هفته آن شهر را از دست الملك المعظّم تورانشاه عمّ الملك الناصر یوسف گرفت و مغول یك هفته حلب را غارت کردند وخلق بسیاری از مردم آنرا طعمهٔ شمشیر ساختند ولی قلعهٔ شهر چهل روز مقاومت نمود، عاقبت مردم آنجا نیز امان خواستند وقلعه را بتصرف هولاکو دادند.

مردم دمشق از ترس آنکه مبادا گرفتار سرنوشت اهالی حلب شوند قبلاً تحف وپیشکشهائی پیش هولاکو فرستادند و فرمان مغول را گردن نهادند. هولاکو هم کیتوبوقا را بتصرف آنجا فرستاد و دمشق نیز باین شکل مسخر مغول گردید (۶۵۷).

در موقعیکه هولاکو در حلب اقامت داشت ایلچیانی از مشرق رسیده خبر فوت منکوقاآن را باو دادند. هولاکو از این واقعه سخت متألم شد و کیتوبوقا را در حدود شام گذاشته ازشام بتاریخ ۲۴ جمادی الاخری سال ۶۵۸ باخلاط برگشت و

چون از حدّ دمشق جلوتر تاخت نماینده ای روانهٔ مصر کرد و او را بقبول اطاعت خود دعوت نمود .

واقعهٔ عین جالوت در رمضان ۶۵۸ - سلطنت مصر چنانکه مکرّر گفته‌ایم از ایّام استیلای سلطان صلاح الدّین ایّوبی در دست افراد خاندان او بود و ایشان بعد از فوت الملك الکامل که در ۶۳۵ اتّفاق افتاد با وجود خطر صلیبیّون عیسوی و هجوم مغول بیش از پیش در نزاع با بنی‌اعمام خود در شام و فلسطین و دامن زدن آتش نفاق خانمانسوز پافشاری می کردند و گاهی برای رسیدن بمنظورهای شخصی از کمك بعیسویان صلیبی نیز خودداری نداشتند .

پسر الملك الکامل ملقّب بالملك الصّالح ایّوب که در ۶۳۷ بعد از عزل برادر خود بسلطنت مصر رسید بکمك غلامان ترك یعنی مَمالیك و بقیّهٔ قشون جلال الدّین خوارزمشاه که بنام خوارزمیّه بعد از قتل آن پادشاه در الجزیره وشام سرگردان و با این و آن در زد و خورد بودند و عاقبت بمزدوری بخدمت الملك الصالح در آمدند در نزدیکی غَزّه صلیبیون عیسوی و ایّوبیانی را که بایشان کمك کرده بودند شکستی سخت داد و شام را ضمیمهٔ مصر نمود .

در سال ۶٤۵ عیسویان صلیبی بسر کردگی لوئی نهم ملقب بمقدّس پادشاه معروف فرانسه بمصر حمله بردند و بندر دمیاط را تسخیر کردند . الملك الصالح در این تاریخ در شام بود و خیال فتح حمص را داشت بعجله خود را بمصر رساند و در صدد دفع صلیبیون بر آمد ولی چون مریض بود در موقع مراجعت بمصر فوت کرد و مجال جنگ با لوئی را نیافت (۶٤۷) .

الملك الصالح یك پسر داشت که از جانب پدر بامارت حصن کیفا مأمور بود و او همان تورانشاه الملك المعظم است که چندبار ذکر او را کرده‌ایم .

مادر این پسر یکی از کنیزکان محبوبهٔ الملك الصالح است که شَجَرَةُ الدُّرّ لقب داشته . این زن برای آنکه جانشینی الملك الصالح بپسرش برسد بکمك دو نفر از امرا مرگ سلطان را از مردم مخفی کرد و با آنکه الملك الصالح کسی را بجانشینی تعیین ننموده بود تورانشاه را از حصن کیفا خواست و چنین شهرت داد که جانشین الملك الصالح اوست . تورانشاه پس از ورود بمصر بمقرّ سلطنت استقرار یافت .

قبل از وصول تورانشاه بمصر صلیبیون قشون اسلامی مصررا شکست داده بطرف القاهره شروع بپیشرفت کرده بودند. رسیدن الملك المعظم نفسی تازه در مسلمین دمید و ایشان سی‌ودو کشتی از سفاینی را که برای عیسویان آذوقه می‌آوردند گرفتند و عیسویان دچار قحطی وبی آبی شده چاره ای جز باز گشت ندیدند، مسلمین هم موقع را غنیمت شمرده بعیسویان منهزم حمله بردند و در ۲ محرم سال ٦٤٨ لوئی نهم را با چند نفراز امرای او دستگیر نمودند. الملك المعظم بعد ازاین فتح مصمم شد که خود را ازچنگ امرا و ممالیك خلاص نماید ولی ممالیك شورش نموده اورا بقتل رساندند وسلسلهٔ ایوبی مصر خاتمه یافت (محرم ٦٤٨).

ممالیك غلامانی بودند که بر اثر استیلای مغول وفرار مردم از جلو ایشان در شام و مصر فراوان شده و الملك الصالح جماعتی از ایشان را بعنوان قراولان خاصه و مستحفظین خود نگاه داشته و از آنها افواجی ترتیب داده بود چون اردو گاه این افواج سواحل شاخ شرقی نیل یعنی قسمت البحر بود ایشان را ممالیك بحری می‌خواندند این ممالیك بعداز آنکه تورانشاه را از میان برداشتند نتوانستند بحال نظم وریگانگی برقرار بمانند وکار اختلاف بین ایشان تا آنجا کشید که لوئی پادشاه فرانسه و سایر محبوسین بی زحمت و ترس از حبس بیرون آمده بقید پرداخت مبلغی بعنوان فدیه نجات یافتند حتی یکی از قاتلین تورانشاه شمشیر خونینی را که با آن بقتل پادشاه مصر اقدام کرده بود پیش لوئی آورد وازاو طلب جایزه کرد.

شجرةالدر درسایهٔ کفایت وکار دانی که داشت یکی از رؤسای ممالیك یعنی عزالدین آیبك ترکمانی را باخود همدست کرد وسلطنت مصر را دردست گرفت ولی خلیفهٔ بغداد المستنصر باین عنوان که زن نمی‌تواند متصدی امر سلطنت باشد اورا باین مقام نشناخت وممالیك دمشق هم آن شهر را بتصرف پادشاه ایوبی حلب دادند. عاقبت شجرةالدر بازدواج آیبك درآمد وآیبك با لقب الملك المعز پادشاه شد (٦٤٨).

یك دستهٔ دیگر از ممالیك که بعلت تعلق بالملك الصالح اسم خود را ممالیك صالحی گذاشته بودند بر آیبك شوریدند ویکی از فرزندان ایوبیان یمن را بسلطنت برداشتند وآیبك را فقط بعنوان اتابکی شناختند.

صاحب حلب نیز بقصد خونخواهی پسرعم خویش الملك المعظم از تمام افراد

خاندان ایّوبی در خواست مساعدت نمود وبالاخره هم بجنگ با ممالیك طرفدار آیبك پرداخت ولی مجبور بقبول صلح شد و در ۶۵۱ سواحل فنیقیّه و غزّه و بیت‌المقدس و نابلس را بتصرّف مصر داد.

چون شجرة‌الدّر از آیبك فرزندی نیاورد آیبك در حرم خود یك عده همخوابه جمع کرد و در صدد ازدواج با دختر بدرالدّین صاحب موصل بر آمد، شجرة الدّر محرمانه شوهر را در ربیع‌الاوّل ۶۵۵ یعنی یکسال بعد از فتح بغداد بدست هولاکو بقتل رساند، ممالیك هم شجرة‌الدّر را بوضع فضیعی کشتند و پسر پانزده سالهٔ ایبك راپادشاه خواندندواتابکی‌اورا بامیر سیف‌الدّین قُدُوزْ را گذاشتند. قدوزدرذی‌الحجهٔ ۶۵۷ پسر آیبك را از سلطنت خلع کرد وخود بالقب الملك‌المظفّر پادشاه شد واو که باّدعای جماعتی، ازشاهزادگان فراری خاندان خوارزمشاهی بود بزودی در مصر قدرت پیدا کرد وبواسطهٔ حسن رفتار و داد و دهش طرفداران او زیاد شد ازآنجمله بودند بقیّة‌السّیف قشون سلطان جلال‌الدّین خوارزمشاهی یعنی خوارزمیه و کسانیکه‌از جلوسیل هجوم‌مغول گریخته بودند. ورود فرستادگان‌هولاکو بمصر برای‌طلب‌اطاعت مقارن بود با ابتدای بسط قدرت وسلطنت امیر قدوز.

امیر قدوز پس از مشورت با بزرگان امرای خود دل بدریا زده فرستادگان هولاکو را بقتل رسانید وبا سپاهیان‌کارآزموده بطرف فلسطین حرکت نمود.

هولاکو خان چنانکه پیش ذکر کردیم در این موقع بمغولستان مراجعت کرده وازجانب‌خود کیتوبوقا را باقریب ۱۰۰۰۰ سوارهٔ مغول‌درشام گذاشته‌بود، قدوز در محلّ عین جالُوتْ (درفلسطین) شکست سختی داد و ازایشان کمتر کسی باقی‌ماند و کیتوبوقا را زنده دستگیر نمود و گردن زد (رمضان ۶۵۸).

فتح‌عین‌جالوت یکی‌ازوقایع مهمّ‌تاریخ مصروشام‌استزیرا که جلوی‌هجوم‌مغول را بطرف مصر سدّکرده وباآنکه بشخص هولاکوصدمه‌ای نرسیده ضربت سختی‌ازآن بشوکت مغول‌واردآمده چنانکه‌هولاکوپس‌ازشنیدن خبرقتل کیتوبوقاتأسّفهاخورده وتصمیم‌انتقام‌خون اورا گرفته ولی بعلّت گرفتاریهای دیگربانجام‌این‌قصدتوفیق‌نیافته.

امّا قدوز از این فتح ثمره ای نبرد زیرا که در ذی‌القعده ۶۵۸ بدست یکی از

رؤسای ممالیك امیر بیبرس رکن الدین بندقداری بقتل رسید و بیبرس بالقب الملك الظاهر پادشاه مصر شد و او چنانکه بعد خواهیم دید یکی از مشاهیر سلاطین اسلام است.

مقارن جنگ عین جالوت پسر هولاکو یشموت که در سال ۶۵۶ میافارقین را درمحاصره گرفته بود و با الملك الکامل ایوبی مدافع رشید آن میجنگید پس از دو سال در نتیجهٔ افتادن قحط وغلا درمیان اهالی آن آنجا را گرفت و مغول الملك الکامل را کشتند.

بعد از فتح میافارقین یشموت شهر ماردین را محاصره نمود و با آنکه هشت ماه آنجا را محصور داشت بگشودن آن موفق نیامد عاقبت پسر صاحب قلعهٔ ماردین پدر را کشت و قلعه را بتصرف مغول داد.

درسال ۶۵۸ بدرالدین لؤلؤ که الملك الرحیم لقب داشت صاحب موصل وفات یافت وجانشینیش بالملك الصالح اسماعیل پسر او رسید واو بزودی موصل را رها کرده بدعوت برادر خود که پیش بیبرس بود بدان پادشاه رفت و بیبرس باو یك عده سوار داد که بموصل بیاید وخزاین ودفاین خود را برداشته مراجعت نماید. پس از مراجعت و رسیدن بموصل مغول دور شهر را گرفتند والملك الصالح بامید کمك بیبرس با مغول بجنگ پرداخت و اهالی شهر هم جنگی مردانه کردند و بمغول صدمات زیاد زدند. چون خبر جنگ بین مردم موصل و مغول از طرفی به بیبرس و از طرفی دیگر بهولاکو که در آذربایجان بود رسید هردو بکمك طرفین سپاهیانی فرستادند ولی مغول از آمدن سپاه مصر وشام قبلا خبردار شده برسر راه ایشان رفتند وایشان را مغلوب کرده بلباس شامیان در آمدند و بطرف موصل روان شدند مردم موصل بخیال آنکه شامیانند که بکمك میآیند از شهر بیرون آمدند و مغول ایشان را در میان گرفتند و جماعتی از آنانرا کشتند.

مغول با اینحال باز بگرفتن قلعهٔ موصل موفق نیامدند ومحاصره طول کشید تا آنکه در شهر قحط افتاد و الملك الصالح امان خواست. مغول در رمضان ۶۶۰ موصل را گرفتند و قتل عام کردند و الملك الصالح را بفرمان هولاکو در دنبه و نمد پیچیدند و در آفتاب انداختند تا دنبه بعد از هفته‌ای کرم شد و کرمان بدن او را خوردند و او باین سختی جان بداد و پسر سه ساله‌اش را در کنار دجله دو نیمه

کردند و هر نیمه را بطرفی آویختند تا پوسید .

مرگ هولاگو در ۶۶۴ - بعد از آنکه هولاکو از فتح بقیهٔ ایران و شام فارغ شد بخیال مملکتداری ودفع دشمنان شخصی افتاد ویکی از آن جمله پسر جوجی بود بنام برکای که در دشت قبچاق سلطنت داشت و چون بدستور برادر خود باتو در رساندن منکوقاآن بمقام خانی سعی‌ها کرده بود خود را ازهولاکو برتر میدانست وباو تحکم میکرد. کار رقابت هولاکو و برکای آخر الامر بجنگ کشید و برکای ۳۰۰۰۰ نفر سپاهی برای جنگ با هولاکو از دشت قبچاق بطرف ایران فرستاد و این عده از دربند قفقازیه گذشته بطرف شروان سرازیر گردیدند ، هولاکو هم در شوال ۶۶۰ بشماخی آمد و قشون برکای را منهزم نمود و بسمت دربند حرکت کرد و پسر خود ابقا خان (اباقا خان) را بطرف ممالک برکای فرستاد ولشکریان ابقا خانه‌ها و اموال ایشانرا غارت نمودند ولی برکای باز تهیهٔ جمعیتی دیده درحوالی نهر تَرَك برلشکر اباقاخان زدوایشانرا درجمادی‌الاولی ۶۶۱ درهم شکست واباقاخان بداغستان بر گشت وهولاکو بتبریز آمد تا بتلافی این شکست قیام نماید وبرای سال آینده تهیه بیند و در همین ایام بود کـه خبر جلوس قوبیلای قاآن برتخت خانی مغول و تفویض سلطنت ممالک بین شط جیحون وشام ومصر ازطرف او بهولاکو بایران رسید .

هولاکو نیزاین ممالك را بین پسران وامرای مطیع خود تقسیم کرداز آنجمله عراق وخراسان ومازندرانرا بپسربزرگترخویش اباقاخان سپرد واُران وآذربایجان را به یَشموت وممالك روم را به معین‌الدّین پروانه که سابقاً وزارت سلاجقهٔ آسیای صغیررا داشت ومطیع مغول شده بود واگذاشت و کرمان را به تَرکان خاتون وفارس را بامیر اَنکیانُو والجزیره را بیکی ازامرای خود .

وزارت هولاکو از بدو ورود بایران یعنی از۶۶۳ با امیر سیف‌الدین بیتکچی خوارزمی بود واین شخص تا ابتدای سال ۶۶۱ وزارت هولاکو را داشت درموقعیکه هولاکو بدفع برکای بطرف دشت قبچاق حرکت مینمود این وزیر را درحوالی دربند بتحریك جمعی ازساعیان بقتل رساند و وزارت خود را به شمس‌الدین محمّد جوینی ملقب بصاحبدیوان و برادر عطاملك مورّخ معروف که ازسال ۶۵۷ حکومت بغدادرا داشت سپرد و حکومت بغداد را بعطاملك برادرش واگذاشت .

هولاکوخان پیش از آنکه برای جنگ با برکای و سایر دشمنان خود اقدامی نماید در ربیع‌الاول ۶۶۳ مریض شد ودر ۱۹ ربیع‌الآخر همین سال در کنار نهر جغاتو (جنوب دریاچهٔ اورمیه) فوت کرد و او را که ۴۸ سال ازعمرش گذشته بود در کوه شاهو در مقابل دهخوارقان بخاك سپردند.

سیاست هولاکوخان ـ هولاکو یکی از خوانین عمارت دوست مغول است و درحدود مراغه و دریاچه اورمیه ورود جغاتو و کوه آلاتاغ ابنیه‌ای ساخت و بحکمت و نجوم و کیمیا نیز میلی داشته مخصوصاً مبالغی ازثروتی را که از غارت ممالك اسلامی بچنگ آورده‌بود در راه کیمیا بباد داد. هولاکوشخصاً مذهب بودائی داشت ودرخوی بتخانه‌ها ساخته بود ولی زوجهٔ او دوقوزخاتون پسرزادهٔ اونگ خان آخرین پادشاه قوم کرائیت مذهب مسیح داشت و چون این زن ابتدا زوجهٔ تولوی پدر هولاکوبوده وبعدازمرگ تولوی بپسرش هولاکورسیده براین پادشاه نفوذ کلّی داشت وهولاکوبرای رعایت خاطراوعیسویان را محترم میداشت وبکارهای مهم میگماشت چنانکه کیتوبوقا سردارمعروف او ازهمین طایفه بود.

چون درایران کسی نبود که پیرومذهب بودائی باشد هولاکو براثرنفوذزوجه و امرای خود بتوجه حال عیسویان ایران که در آذربایجان و ارمنستان زیاد بودند پرداخت وبحکم او در همه‌جا برای ایشان کلیسا میساختند و اردوی دوقوز خاتون هر جا بود بر درآن ناقوس میزدند واین خاتون یکی از جاثلیقان ارمنی را که وارتان[۱] نام‌داشت بمشیری خود اختیار نموده بود ارامنه وعیسویان دیگر ایران که‌ازاستیلای مسلمین هیچوقت خشنود نبودند هولاکو و دوقوزخاتون را نجات دهنده و یاور خود میپنداشتند مخصوصاً این جماعت چنانکه پیش هم گفتیم سعی داشتند که قدرت‌مغول را بنفع خیالات مذهبی خود بکار وادارند و بعیسویانی که در شام ومصربا مسلمین در جهادند کمك برسانند واسلام را یکباره از آسیا وافریقا براندازند.

هجوم مغول بشام ومصر نیز برای انجام همین طرح بود مخصوصاً کیتوبوقاپس ازاستیلا بر دمشق شروع بتبدیل مساجدآن شهر بکلیسا کرد واگرجسارت و کفایت امیر قدوز وفتح او در عین جالوت نبود مغول آخرین پناهگاه اسلام یعنی فلسطین و

۱ ـ Vartan

افریقای شمالی را هم مسخر مینمودند با پافشاری که درهمان ایام صُلیبیون عیسوی‌در قلع ریشهٔ مسلمین داشتند دیگر مشکل بود که اسلام جائی بگیرد و درمیان این دو دشمن متعصب کینه‌ور قد علم کند .

واقعهٔ عین‌جالوت اگرچه از لحاظ نظامی اهمیت فوق‌العاده نداشت ولی از لحاظ فوق خیلی مهم‌است بخصوص که پس ازاین شکست دیگرمغول‌نتوانستندبانجام فتح شام ومصر موفق آیند و پیش آمد دیگری نیز سبب شد که کینه‌ای را که مغول با مسلمین داشتند بتدریج ازخاطر ببرند وآن اسلام آوردن مغولان دشت قبچاق و خزر وترکستان بود .

سلاطین مغول ایران که ممالکشان بین متصرفات ممالیك مسلم شام و مصر و مغولان تازه مسلمان ترکستان و دشت قبچاق قرار داشت چنانکه بعد شرح خواهیم اد بتدریج بقبول اسلام تن در دادند وکار مسلمانی ایشان کم کم بآنجا کشید که خود ناصر و یاور شریعت محمدی شدند و سیاست عیسویان وارامنهٔ ایران در مقابل نفوذ امرا و وزرای مسلمان ایرانی مغلوب گردید .

الفهرس

المصادر والمراجع

١. إمبراطورية على صهوات الجياد - سليم واكيم ، دمشق - سوريا ٠

٢. بدائع الزهور في وقائع الدهور - ابن اياس ، القاهرة ٠

٣. البداية والنهاية - ابن كثير ، بيروت ٠

٤. بغداد خلفاؤها ، ولاتها ، ملوكها ، رؤساؤها - باقر أمين الورد - العراق ٠

٥. تاريخ الإسلام - حسن إبراهيم حسن ، القاهرة ١٩٨٢ ط ٢ ٠

٦. تاريخ الأمم الإسلامية - محمد الخضري بك القاهرة ، ١٩٧٠ ٠

٧. تاريخ التمدن الإسلامي - جرجي زيدان - بيروت ٠

٨. تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي - القاهرة ٠

٩. تاريخ الشعوب الإسلامية - كارل بروكلمان ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي - بيروت ٠

١٠. تاريخ فاتح العالم جهانكشاي عطا ملك جويني ترجمة محمد التونجي - بيروت ٠

١١. تاريخ كزيده حمد الله مستوفي باهتمام عبد الحسين نوائي تهران ١٢٣٩ هـ ٠ ش ٠

١٢. تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، بيروت ١٩٨٣ ٠

١٣. تاريخ مغول از حمله، جنكيزخان تا تشكيل دولت تيمور - عباس إقبال تهران ١٣٦٤ هـ٠ش ٠

١٤. تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة - بيروت

١٥. تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي - فاسيلي ف - بارتولد ترجمة صلاح عثمان الكويت ١٩٨١ ٠

١٦. حركات الغلو والتطرف في الإسلام ، أحمد الشاذلي ، القاهرة ١٩٨٧ ٠

١٧. جامع التواريخ – رشيد الدين فضل الله – نشر كاترمير ترجمة صادق نشأت وآخرين . القاهرة .

١٨. جنكيزخان وجحافل المغول – هارون لامب – بيروت .

١٩. ذيل تاريخ جهانكشاى لخواجة نصير الدين الطوسي – بغداد .

٢٠. روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء – مير خواند ترجمة أحمد الشاذلي ١٩٨٨ .

٢١. سعدي الشيرازي شاعر الانسانية محمد موسى هنداوي – القاهرة ١٩٥١

٢٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي بيروت .

٢٣. الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين – فؤاد عبد المعطي الصياد الدوحة ١٩٨٧ .

٢٤. الشيعة يحكمون مصر – أحمد الشاذلي – تحت الطبع .

٢٥. صبح الأعشي في صناعة الأنشا – القلقشندي .

٢٦. صلات بين العرب والفرس والترك ، حسين مجيب المصري ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٧. طبقات ناصري – منهاج السراج الجوزجاني مخطوط .

٢٨. العراق بين احتلالين – العزاوي – بغداد .

٢٩. علاء الدين عطاملك الجويني حاكم بغداد – السعيد جمال الدين – القاهرة

٣٠. العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في عهد الدولة المملوكية الأولي . فايد حامد عاشور القاهرة .

٣١. فتحنامه – عطاملك جويني ترجمة محمد التونجي بيروت .

٣٢. الفخري في الآداب السلطانية ، والدول الإسلامية – ابن طباطبا بيروت ١٩٨٠ .

٣٣. كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ لأبي العباس أحمد بن يوسف الدمشقي القرماني مخطوط .

٣٤. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر – ابن خلدون – بيروت .

٣٥. كليات سعدي الشيرازي – نشر فروغي – تهران

٣٦. لسان العرب لابن منظور – دار المعارف .

٣٧. مآثر الأنافة في معالم الخلافة القلقشندي بيروت .

٣٨. مختصر تاريخ العرب – سيد مير علي ترجمة عفيف البعلبكي – بيروت .

٣٩. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ابن فضل الله العمري مخطوط – ج٣ تحقيق د. أحمد الشاذلي – أبو ظبي .

٤٠. المظفر قطز ومعركة عين جالوت – بسام العسيلي دمشق ١٩٨٠ .

٤١. مقدمة في تاريخ جهانكشاي للقزويني ليدن ١٩١١ .

٤٢. المغول في التاريخ – فؤاد عبد المعطي الصياد القاهرة .

٤٣. نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد النويري تحقيق فوزي العنتيل ، القاهرة ١٩٨٥ .

44. **The Mohammadan Dynasties - Lane – poole .**